

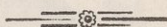
نُظُمٌ وَأَمْثَلَاتٌ فِي الْأَدَبِ وَالْحَيَاةِ

892.74

A967tA

فصول وأبحاث متفرقة

كتبت من سنة ١٣٥١ الى سنة ١٣٥٥ هـ



بقلم
محمد حسن عواد

مكتبة العرب

مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ من كامل صدقي (القجالة) القاهرة

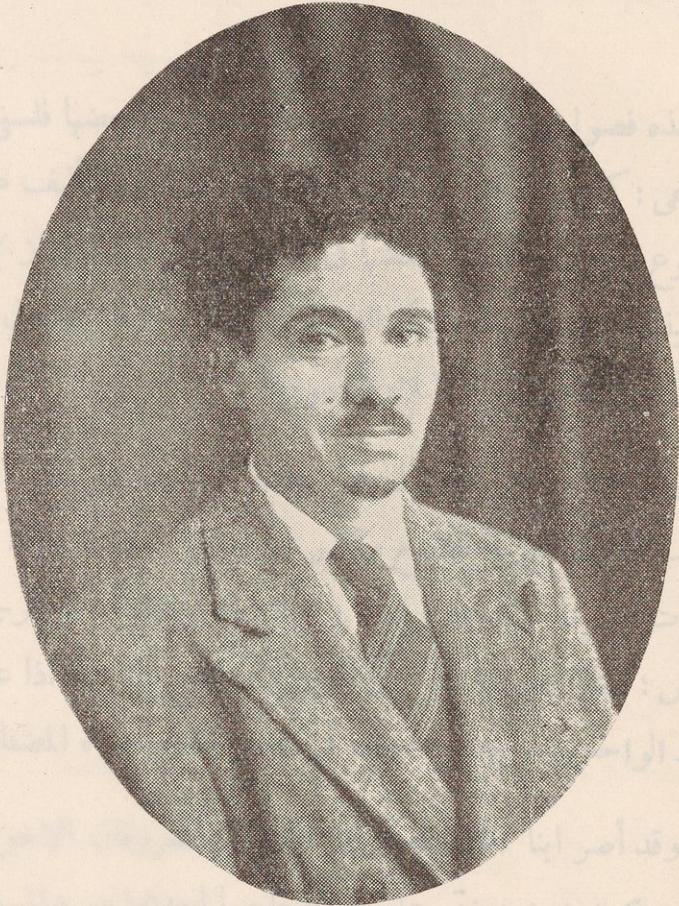
مطبعة العالم العربي بالقاهرة
الإدارة: ٥٣ شارع البرسيم باشا (نام شبر) ت ٤٤٧٠٦



اهداء

يتشرف الأدب الذى ازدهر فى عصر صاحب الجلالة الملك المعظم
عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية أن يهدى أحد منتجاته
إلى اسم جلالته ، لا للجلية فحسب وإنما للذكرى والفخارمة
المؤلف

مقدمة



المؤلف

وقد أصر أبنا
وسيد محمد عيدين زهير على أن يسميها اسمها هذا الذي يظهر في هذه
السنه لطبعها ، قدمنها اليه غايته من الجهد والوقت ، فأنشأ
العبد بها بعيد مني ، وكنت أفضل لو أنها قربت الى الأبد فقد تفتتت يدي
منها ، غير أن الرغبة في إجابة الآخرين ، وبخاصة أمانى تطلعي كل يوم
والأمل في أن يتناولها الأدباء والدارسون بما شاءوا من نقد أو مناقشة ،
كل هذه أسباب تجبعت لدي الى تسليمها للطبعة . لم أبدل منها شيئاً ، وإن

مقدمة

هذه فصول وابحاث ومطالب ، بعضها ادبي ، وبعضها فلسفي ، وبعضها اجتماعي ؛ كتبت في فترات مختلفة وعلى غير قصد لتأليف كتاب في موضوع واحد ، وقد نشر بعضها في صحيفة (صوت الحجاز) التي كانت الصحيفة الوحيدة في المملكة العربية السعودية ، وقد استبدل مؤسسوها اخيراً بهذا الاسم اسم (البلاد السعودية)

وقد جمعت هذا الفصول قبل بضع سنوات ، على أمل ان تطبع في مطبعة الشركة العربية للطبع والنشر ، ولكنها مكثت هناك حبيسة عدة سنوات لغير ما سبب معروف ، وبخيلة لبقه استطعنا أن نخرجها من ذلك المحبس ؛ لكي نهيئ لها أن ترى النور وان تشع بالنور ، اذا عد تفكير الفرد الواحد نوراً يهدي اخوانه في دامس ظلام الحياة المضطربة .

وقد أصر ابنا الخال العزيزان التاجران المعروفان الاخوان عبد الله وسعيد محمد عبيد بن زقر على أن يصطحبها احدهما معه الى مصر في هذه السنة ليطلعها ، فقدمتها اليه غير مغتر بما تحويه من افكار وتعاير ؛ فانما العهد بها بعيد مني ، وكنت افضل لو انها قبرت الى الابد فقد نفضت يدي منها ، غير ان الرغبة في اجابة الاخوين ، وبقامها امامي تطالغني كل يوم ، والامل في ان يتناولها الادباء والدارسون بما شاءوا من نقد أو مناقشة ، كل هذه أسباب تجمعت لدفعي الى تسليمها للمطبعة . لم ابدل منها شيئاً وان

كنت قد حذفت فصولا برمتها لو ضمت إلى هذه لبلغ الكتاب أربعة
أضعافه أو يزيد .

فإن أحسنت فشكراً لله ، وإن أسأت فعذري في الإساءة أنها عنصر
لا بد منه من عناصر حياة الانسان .

١ رجب سنة ١٣٦٩

جدة

١٨ أبريل سنة ١٩٥٠

محمد مسون عواد



الانسان والحياة

ما من ذرة من الذرات التي تلتئم منها الكائنات الحية واجزاء الكائنات ، إلا وهي تكاد تعلن عن نفسها في صور من التعابير شتى متباينة ، وفي اوضاع من مظاهر التعابير عديدة ، فمنها ما يهمس بخفاء جرس لا تحس به إلا العقول المتعمقة والشعور الدقيق في غير ان يكون لهمسه هذا نصيب من ادراك الافكار العادية العامة ، في حين انه يوجد بين تلك الذرات ما لا يعرف همس التعبير للاعلان عن نفسه وعمما يقوم به من عمل ضئيل او غير ضئيل ، فهو يحنح اذن الى الجهر كما يصنع اقوى الخطباء وامهرهم ؛ في وطيس الحماس ، وبين تلك الذرات ايضا ما يأخذ مكانة التوسط في ظهوره للعالم المنتشر ، وفي الحياة كوائن تتماوج ما بين تلك الدرجات الثلاث ، ومنها يأخذ « الانسان شكله في كينونته الذاتية ووجوده الاجتماعي . والانسان هو الكائن الراقى الذي يقوم بأهم دور يمثله كائن في الحياة ، وهو الموضوع الجدير بالناية والدرس اذا تصدى الدارسون لفحص عناصر الاحياء ، وهو « الحى » الذى يسطو بقوة الحيوية فيه على ما يحيط به من اشكال المواليد الطبيعية ، وان كان ينكل كثيراً عن التغلب على معظم تلك المواليد ، بيد ان نكوله هذا لا ينقص من قيمة تفوقه النوعى في عالم الاحياء ؛ ففي هذا الكائن الكبير الممتاز تصرخ الحياة المتبصرين قوية الصوت رنانة اللحن حماسية الإلقاء ثائرة

مندفعة ، لأنها هي ذاتها تملؤه بكل ما فيها من قوة الحلول ، وتسوق أعصابه
القوية الى العمل والحركة والسير والدفاع والمهاجمة والنقل والهدم
والتأسيس والتعمير والتخريب ، وتحفز دماغه المدهش القوى الفعال الى
التفكير والفلسفة والتأمل والانتاج العلى والنظر الى جوانب العالم
الفسيح لتغيير الاوضاع الممكن تغييرها والاستبدال بها أوضاعاً تبرز مع
الحياة البشرية العامة فتكون مجتمعاً قديراً نافعاً ، واستبقاء الاوضاع التى
لا تمس صلاحية الوجود بشيء من العقم ، وتقود عواطفه المدهشة الى
الاتجاه فى سبيل طالما اقامت وأقعدت وفعلت اعاجيبها فى تقويم الخلق
وتدريب النفس على حمل اعباء الحياة والصبر لما تتطلبه من جهاد .

لمدهش جداً هذا الكائن العظيم ! وقديماً ما تنبه الى عظمته
الاقدمون فلقبوه بالعالم الاصغر كما لقبوا الكون بالعالم الاكبر وقال
شاعرهم يخاطبه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وما بالمستنكر ان يكون للانسان مثل هذه المنزلة فى الوجود العام ،
وكم فى الانسان من دروس تلقيها الحياة على الانسان نفسه وكم فيه من
كفاية قوية لاقتبال تلك الدروس وفهمها وتطبيقها ! وما معلمه الاكبر
سوى عقله واحساسه ، وفى هذين تظهر جلالة الله وعظمته ، وكفى علماً
بعظمة الله ان تدرك انه خالق العقل وخالق الاحساس ... ! إذ قوة
الاحساس هي التى تقذف من هذا البركان الحى (الانسان) حمم
العواطف الجبارة الهائجة ، وما تستحدثه العواطف من آثار عديدة لها

مفعولها الذي لا يحد ، وقوة العقل هي التي تخرج من معمل الانسان
منتجات التفكير وحسب الانسان عظمة ان تندفع عنه امثال تلك
المنتجات بجمالتها وتفصيلها : منتجات العواطف ومنتجات الافكار

العمل في سبيل اللغة العربية

رسالة مفتوحة (١)

الوجيه الفاضل صاحب صوت الحجاز !

ابادرك بإرسال كلمتي الآتية حاوية شكرى وغبطى لجهودكم المستمرة في اعداد المواد الادبية والعلمية القيمة لجريدتكم الغراء ونشرها على القراء المستفيدين والمعجبين والناقدين بين كل وقت وآخر مما يدعوني الى الافصاح عن هذا الشكر والغبطة الاكيدين . وثق انى انما اقصد بصفة خاصة من كلمتي هذه بحثاً كان يبدو لى انه متسلسل وانكم ستشرونه متواليأ اسبوعاً تلو اسبوع حتى ينتهى ، وقد نشرت منه صحيفتكم مقالين ليس الا في عدديها الخامس والثلاثين ثم الثامن والثلاثين بعنوان : « كلمات شاع استعمالها ملحونة -- دعوة الى اصلاحها خدمة للغة والادب » بقلم عبد القدوس الانصارى ، ولجد نافع هذا البحث المشكور ، ولحكم كانت غبطى شديدة عندما تصفحته ووددت ان لو يتابعه كاتبه الاديب حتى يأتى على ما عنده وما اعدده منه لهذه الغاية من الكلمات الشائع استعمالها ملحونة فيخرج من هذا البحث مجموعة لغوية صالحة من الكلمات المستعملة بعد ان يتنبه الشادون فى الأدب الى صورتها الصحيحة الواجب استعمالها بها !

ولقد طرق هذا البحث من قبل الاديب الانصارى كتاب عديدون

(١) كانت هذه الرسالة كتبت وارسلت الى صاحب جريدة صوت الحجاز فنشرها فى العدد ٤٢

اذكر منهم الآن المرحوم الفقيه الشيخ ابراهيم اليازجى الذى الف فى هذا البحث كتابيه « نبعة الرائد » و « لغة الجرائد » فنقد فيها الكتاب العصرين ولا سيما محررى الصحف فى كثير مما يستعملونه من الالفاظ والعبارات الاصطلاحية فكان الصائب الموفق المحمود ، والاستاذ اسعد داغر المحرر بجريدة الاهرام فى كتابه « تذكرة الكتاب » الذى ذكر فيه ما يربو على ثلثمائة كلمة خطأ الكتاب فى استعمالها ولكنه هو نفسه جاء خاطئاً غير مصيب فى جميعها ، وقد نقده المجمع العلمى العربى فى دمشق على صفحات مجلته المسماة بهذا الاسم ، وارجع عليه كثيراً مما نقده واعترض فيه على الكتاب ؛ دون صواب ولا تؤدة ، ويحضرنى الآن من ذلك المردود الفاظ « محاضرة » و « تحرير » و « غاو » (Amateir) واذكر انى كتبت نقداً لهذا الكتاب أثبت فيه كثيراً من تحامل المؤلف وافتياته على الكتاب بملاحظات دوتها ، وافقت فى كثير منها آراء المجمع العلمى ، ومن هؤلاء الباحثين فى هذا الصدد الشيخ ابراهيم المنذر عضو مجلس النواب اللبنانى الذى الف كتاباً فى هذه الناحية وسماه « كتاب المنذر » وبعث بنسخة منه للاستاذ مصطفى الغلايينى ليبدى فيه رأيه فوجد الغلايينى معظم ما اعترض به المنذر على الكتاب العصرين غير موفق فيه للصواب فرد عليه بكتاب سماه « نظرات فى اللغة والادب » بلغ حجمه حجم كتاب المنذر .

ونحن ياسيدى الفاضل إنما نرمى بهذا البيان وهذه الكلمة إلى اشياء تهم الادب الانصارى وتهم الشاردين فى الادب والمتعسفين فى الكتابة على حد سواء .

نريد اولاً ان نستحث همة هذا الكاتب الى موالاة هذا البحث الذى

يجب ان يكون منا بموضع غبطة ورعاية ، فهو سيفيد جداً اناساً كثيرين
قل محصلهم من اللغة العربية وضوّلت معارفهم فيها وخلا فاضهم من
الممكنة من قواعدها المصححة المقررة فاكثفوا بما لا يجوز ان يكفى من
الدرج على ما اساغه العرف .

ونريد ثانياً أن نلفت نظر هذا الباحث وهو في أول بحثه الى الخطة
والحذر في تتبع الكلمات التي ينقدها ويلاحظها على الكاتبين على أساس
انها ملحونة قبل أن يقرر فيها حكماً وأن فيها مما هو أبعد الالفاظ عن
اللحن والخطأ وأغرقها في الاستقامة والصواب فلانحسب أن يمضى الأديب
على طبيعته من دون أن يميز في نقده بين الملحون حقيقة والملحون وهما
وبين المستعمل شذوذاً والمستعمل اطراداً ، وبين الشائع والصحيح
وما تلتقى فيه الصحة بالشيوع ، وهو بهذه القاعدة في التمييز والتفرقة يستطيع
أن يخدم لا اللغة فحسب ولكن الفن أيضاً وما في الفن من روعة وذوق .

ونريد ثالثاً أن نمهد الطريق باستحثاث هذا الأديب العامل في متابعة
سيره في هذا البحث الذي بدأه ، لابرار عمل أدبي كنا شرعنا فيه منذ سنوت
وعاقنا عن اتمامه المشتبكات الكثيرة كما عاقبتنا عن غيرة وعاقبت غيرنا عن
مثله ، وفي مقدمة هذه المشتبكات عدم انتعاش الروح الأدبي واستعداده في
الحجاز . أما هذا العمل الأدبي فكتاب لغوى مختصر الفنا جانباً منه جعلناه على
طريقة القواميس والمعاجم فهو عبارة عن « قاموس » صغير يوضع في الجيب
يطبع بالحرف الدقيق ليستوعب مواد جمّة مع صغر حجمه . وقد رتبناه
على طريقة المصباح المنير وأقرب الموارد التي تبدأ بأول حرف من الكلمة
ثم الثاني ثم الثالث وهكذا ، لا على طريقة أصحاب الصحاح والقاموس

ولسان العرب التي تبدأ بآخر حرف من الكلمة على أنه الباب ثم بالأول على أنه الفصل ، وكنا شرعنا في تصنيف هذا المعجم لطلبة المدارس والراغبين في الاطلاع ، والذين تضيق بهم أعمالهم عن البحث والمراجعة في القواميس المطولة بضبط صيغة جمع ، أو معرفة مصدر يقاس على فعله أو التحقق من كلمة سماعية أو حركات لفظية . أو نحو هذا مما يعيب الكاتب — أى كاتب كان — أهمله فلا يعسر على هؤلاء حملة في الجيوب والاستفادة السريعة الممكنة منه ، ووصلنا فيه الى حرف الحاء ، وسنتممه عند سئوح الفرص ان شاء الله .

وليس هذا المعجم بحاف للوضع ولكنه على طريقة جيدة جداً ، يلاحظ فيه الفن الكتابي ونماذج البلاغة في التعبير ، فلم نكتف بذكر معاني الكلمات وتصريفها ، بل اثبتنا العبارات المجازية أيضاً بأوسع وأدق مما صنعه الزمخشري في قاموسه المسمى (أساس البلاغة) وكتبنا في أول هذا القاموس مقدمتين لازمتين للمطلع الأديب ، وهما نحن أولاء في انتظار الفرصة الجدية لنقدم لبنى امتنا ولعنتنا ووطننا هذا الكتاب الذي سيحمدونه فيما أتق .

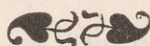
فعلى الأديب الانصارى اذن أن يمهّد لنا طريق ابراز هذه الفكرة — التي بدىء في عملها — في القريب العاجل بموالاته أبحاثه التي تساعدنا على إشراب الجو بروح التيقظ الى الاعتناء باللغة العربية ، وإنا له لشاكرون ولعمله وأمثاله من الأدباء لمقدرون .

وكما نوهت بفضل الانصارى وشكره فأنى بهذه المناسبة لا أنسى أن أشكر وأنوه أيضاً بفضل الأديب جعفر عوض في تقدمه الى المجتمع بمقاله

عن « اللغة العربية الفصحى » ودعوته الى تعميم استعمالها فى المدارس فهذان
أديبان يظهران فى هذه الآونة يعضدان هذا الموضوع لاريب انهما يشكران
على ما يستثيران فى الأمة من الروح الأدبى القويم فحيا الله الهمة والفضل
والأدب والتحمس للغة فى شخصيهما الكريمين

ونزيد رابعاً ، بعد الشكر والثناء والاعجاب طبعاً — أن نعتب
على الأديب الانصارى فى قطعه سلسله هذا البحث المفيد ، ولا أخليك أنت
أيضا من العتب بصفتك صاحب الصحيفه ، اذ فى مكتك أن تستحث الأديب
ليوالى جهوده فى نشر بقية المقال ، فعسى أن يلقى عتبى لديكما — كانه
الرحب من الإصغاء والمجاوبه المجديه .

وتقبل أيها الفاضل مزيد تحياتى واحترامى



احترام النفس

قال لى رجل محترم كبير على أثر حادث كان بينى وبين أحد العلماء
 هامعناه : أرأيت لو مضيت على طيتك موعلا فى مناقشة صاحبك
 على الاسلوب الذى كنت تتخذة فى المناقشة الجدية معه ، وهو أسلوب
 الصراحة والمضى فى الاعتداد بآرائك إلى حد لا يبق معه السامع معترفاً
 يتفوق مناقشك العظيم عليك بل يضعك فى صفه جنباً الى جنب ، ثم
 لم نتدخل نحن فى حسم الخلاف بينكما . ماذا كان ينتج من تلك المباحثة ؟

قلت : ماذا غير أن تؤيد الحقيقة على يد أحدنا فى غير أن يكون شأن
 للمنزلة فأنا انما أجادله لهدم أوهامه أو نظراته التى لا أراها إلا تافهة غير
 واضحة حتى عند صاحبها نفسه ، ولا أحول أن أهدم مكانته الشخصية
 عند من يحفلون بها .

قال : ولكن ألا ترى أنه خجل من نفسه ، وقد أبصرنا كلنا كيف
 كانت يده ترتعش وهى قابضة على عضادة كرسيه ! وكيف كانت نبرات
 صوته تصور أقوى خلجات نفسه الضعيفة المهزومة ؟ وكيف كانت سحته
 تربد قليلا قليلا وأنت ماض فى حديثك لا تدرك نفحة من نفحات الرحمة
 ولا يرف عليك طائف من طيوف العطف !

قلت . ليست هذه جنائى ، ولكنها جناية الظروف التى انطلقت
 صاحبى بما كانت تهجس به نفسه ، وتركته يعتبر تلك الهواجس الحمقاء

قانوناً يسيطر به على تفكير الآخرين غير مكترث الا لنفسه ولا عابى .
 بمن تحمل هذه الكرة الأرضية اذ هو لا يبصر على سطحها الا مكانه
 الضئيل ليس غير ، فهل ترانى اجرت حـين أشعرته أن على الأرض
 من أبناء أيننا آدم من يفقه لمكانه بين أفراد الاسرة الآدمية ؟ واذا كان
 الشيخ قد الف من شتى المرائى وصور الانفس ما غدى خياله بوهم بسط
 جناحيه على مخه الكريم مؤداه ان الناس امام عظمتهم ما بين مأخوذ
 بروعتها الفاتنة قد قصرت به مواهبه أن يلحق بها أو يقبض على أذيالها
 الطويلة الأهداب ، ومتغاض لا يرى لمهانة نفسه أن يعلن رأيه فى موضوع
 المناسبة ، اذا كان الشيخ ألف ذلك فليس بما يستسيغه المنطق فى مذهبي أن
 أطأ الحقيقة بقدم الاجرام الاجتماعى الذين يطلقون عليه خطأ فى معظم
 الاوقات اسم « التواضع » أفلا ترى من الاثم أيها العم ! ان يأتى المرم
 بكابوس ثقيل من سخافة الخلق المتكلف المرذول فيخمد به انفاس النفس
 المستوفزة للدفاع عن فكرة يمازجها الاحساس بعظمة الحقيقة فى مجال الحديث
 المباح ؟ للنفس الانسانية حرمة واجبة الاداء ، وليس تنازل الانسان عن
 اعلان رأيه امام من لا يكرئه تقدير الاراء والحقائق إلا صورة مجسمة
 للعبث بكرامة النفس واضاعة احترامها المحترم .

القيت بهذه الثثرة امام ذلك الصديق القديم وكنت انتظر منه أن
 يصارحنى أنه استمرأ منطقى هذا بعد أن تذوقه وهو يخلط الثأوب
 بالابتسام ، غير أنه هز رأسه وقال :

- ولكن صاحبك رجل طيب

ولم أشأ أن أفتى على حديثه بما يفسد عليه رزاة الكهولة ووقارها
فيخرجه الى العجلة في الحكم على ذلك صاحب الذي كان يحله أو يحامله
فابتسمت صامتاً وألقيت يدي الى أصابعه وكان قد أخذها ليمدد زمن
الحديث ، وسرعان ما استحالت غاية محدث من فتح المحادثة في شأن قصتي
مع صاحبي ، لقد كان يقصد المشاغبة وتمضية الوقت واسداء النصيحة إلى غير
أنى أحسست الشحول الهائل في غايته وأيقنت أنه استمرراً منطقي في فلسفة
احترام النفس فلبحت أنه يرغب الاستزادة من هذه الفلسفة وعليه
بعد تبعة التسمية .

كان هذا في وقت الصباح ، وكان في جمال الشمس الصافية ما يبرر
استمرار البقاء في رحبة دار الصديق الضاحية ، وكان في صمتي وجولائي
أفق أطلق فيه لفظة الاستزادة :

— هيه !

فقلت نعم هو طيب بلا ريب ، ولكن ما دخل أن يكون الرجل
طيباً في أن يلهسنا الاكتشاف؟؟ موضع الرككة واتهام في أسلوب تفكيره .
ثم هو لا يريد أن يتحمل مواجهة حرارة الشعور من جانب غيره بالايان
بما يصدمه به في حرية وصراحة لا تستجيب لهما نفسه المتمردة على الحق ؟
مثل هذا يامولاي لا يزيدنا الا احساساً بوجوب الاحترام لأنفسنا ، إذ
أظن أن احترام النفس هذه المواقف اجدى في استلهاها مواقع الصواب
وأشد لصوقاً بمعنى الحياة وطبيعة الواجب ، واذ كيف يستطيع الاهتداء
في طريق المعرفة من يمشى إلى تلبس الحقائق بنفس مهينة مستضعفة لا يأمن

أن تقطع عليه الطريق هاربة متوارية تحت ظل المذلة وضئولة الشأن
وخفوت البصيرة؟ وكيف يستطيع الاحساس بالحياة لمن يدين بإنكار
الذات والتهاون بالنفس، ولا سيما في مواقف أشد ما يحتاج فيها المرء لتقدير
مواجهة أمام نفسه ليفهم أنه إنسان له ما في الإنسانية منميزات؟ وكيف
يستطيع لنفسه الدخول في مآزق البحث والمناقشة من لا يقنع نفسه قبل
الاشتباك في مواضع البحث بأن له غاية سامية يشدها هي الوصول
إلى الفهم واقناع الغير بصحة ما هو فاهم؟ كل هذا وإن شئت فبعضة مبرر
للمرء أن يشق بنفسه ويحترمها في مشتبك الحديث الدائر على محور البحث
والمرء باحترام نفسه أخرى في كل مظهر من مظاهر الحياة...

تقول ان هذه فلسفة، هذا لا يهم فلتكن فلسفة أو فكرة أو مذهباً
أو معتقداً يرجع إلى الوجدان قبل مرجعة إلى المنطق أو التجربة ولكن
يبقى معنا أن احترام النفس أمر يقره الطبع الممتاز.

مواضيع الحياة العامة

إذا تسامحنا قليلا في التعبير وقسمنا هذه الحياة التي يزاولها الناس في عموم أقطار الكرة الأرضية على مختلف طباعهم ومشاربهم وطبقاتهم ونواحي تفكيرهم، نجد أمامنا أن الحياة موزعة النواحي مقسمة إلى عدة أقسام، وهي التي أسمىها هنا بمواضيع الحياة، وكل من الأحياء يعالج فيها موضوعه الخاص منساقا إليه بدافع الغريزة التي تهديه أو البيئة التي تؤيده أو المصلحة التي تقوده أو الثقافة والدراسة التي تكيّف تفكيره وتوجه جهوده العلمية والأدبية إلى نواح معينة. اذن فلإنسان في هذه الحياة دوافع قوية تتركه يعالج مواضيع الحياة مختاراً أو غير مختار متقاداً بحكم الغريزة الهادية أو البيئة الآوية أو المصلحة الداعية أو الثقافة المكيفة، فثلا الرجل السياسي الذي يعارك نظريات السياسة ويدرسها ويفكر فيها ويعمل بها ويطبقها على نفسه وعلى بني بيئته وأفراد وطنه بل وأمتة وكل من حوله ومن يرتبط به من الأمم، انما يعالج هذا الموضوع - وهو طبعا احد مواضيع الحياة - محكوماً من احدى هذه الدوافع مضطرا أن لا يشذ عن ما لديها من مناهج وخطط مادام يعمل مسيراً غير خير، وما دامت له حاجة ملحة ترغمه على أن يعمل ليشق طريقه إلى الفوز الشريف وإلى ضمان طمأنينته على سعادته واطراد عيشه وحفظ كيانه بين أفراد الخليقة التي هذه خطتها وهذا دأبها منذ أن كانت السماء والأرض ومنذ أن كانت الخليقة خليقة والعالم عالماً.

نكتب هذا ونحن نحاول أن نرسم للناس بياناً عن خطة هذه الصحيفة^(١) في سيرها الاجتماعي بين الطبقات ، والطبقات هنا في الحجاز من أشد طبقات الناس تبايناً واختلافاً وتوزع ميول . والفردية في الرأي معززة بالحماس للفكرة الشخصية شيء يكاد يكون ميزة معظم الشرقيين عموماً ولا اظلم الحقيقة فأقول الحجازيين فقط ، فطبقة تدين بالرجعية مثلاً لا تؤمن بغيرها ، وأخرى تعتقد التطرف الراد يكالي - إذا استعرنا التعبير السياسي الافرنسي - وثالثة تريد التجدد المعقول الحر ولا يعنيه التطرف والشذوذ ، ورابعة تبغى الجمع بين نهج وآخر ، ولله ما أشد ما يضحك هذا الابتغاء ويربك ، وخامسة ترضى بأى المناهج ولا يهمها إلا شيء واحد هو أن لا تفكر في شيء من هذه التقسيمات أو مذاهب السير الحيوى وسادسة لا ترضى بشيء ويهمها دائماً أن تحيا بثشوش فكري مؤلم يؤخر طرائق السير ويضطر السائر إلى مجانبتها وازدراؤها لأنها تقول ولا تعمل وتثرثر ولا تفكر وتصيح ولا تهتدى ، وفيما بين هذه الطبقات أفراد منقسمون على أنفسهم : رأى الصديق غير رأى صديقه وخطة القرنين عكس خطة قرينه وأحياناً لا عكس ولا تعاكس ولكن تضارب مشوش ممسوخ لو مدت الية يد العلم والثقافة لهدبت من فوضاه الصماء وفتحت من عينه العشواء ما هو في أكبر الاعواز إليه

ونحن لا نشكو هذه الفوضى في الميول والآراء وإن كنا نئن منها وتتمنى زوالها وحلول اليقظة من نظام محلها ، لأننا نعلم أنها طبيعية في الشعوب التي ليس لها كيان علمي وليس منبثاً في طبقاتها روح الصناعة والزراعة

والعمل والآداب ولكننا نشكو خلوها من النظام ووسائل الظهور ، مما يجعل السير الصحفى ممنوعاً ببعض العسر ، لا بل بكله ، فالصحافة يهملها انتظام الآراء الفردية التى يتكون منها الرأى العام . وأية صحافة - أيها القارىء - لا تستضىء بضوء الرأى العام ولا ترتكز عليه فى سيرها وبحثها ونقدها واقتراحها وغربلتها وإيلاهما وإرشادها وتهذيبها ؟ ؟

أية صحافة فى العالم لا تتصل بهذا الرأى العام ولا تسعى لأن تخدمه كما يجب ؟ ومادامت هذه غاية الصحافة فأنى تسهل أمامه الخدمة المبتغاة ؟ ولكن لا بأس مهما وجدت المعضلة فالتنازع غمون فى هذه الأحوال أن نسير بهذه الصحيفة على خطة قومية مرضية ننظر فى أصلح الأمور لمراعاة فائدة الطبقات فاتحة صفحاتها وأبوابها للجميل النافع المرجو منه ما يسمو بالبلاد إلى طبقة سعادتها واطمأنينتها ، وما يثقف الذهن أو يهذب الخلق أو يجرى مجرى الرشد والاعتدال فى السياسة والاجتماع والآداب وطرائق الفكر ومذاهب الرأى ، فان مسيراً غير هذا المسير لا يمكن أن يكون بين هذه الطبقات ، وإن الحياة نفسها لتوحى الخطط إلى السائرين .

الشعر والفلسفة

في قصيدة نظمها منذ سنوات أقول :

وهل كنه هذا الكون الاحقائق تصورها الأذهان كيف تشاء

وهو معنى فلسفى يوافق تماما رأى الفيلسوف الالحائى « عمانويل كانت » الذى ثار به على الفلسفة القديمة ثورة فكرية كان مفعولها القوى اذ يقول هذا الفيلسوف : « إن كيان الطبيعة فى ظاهره انما هو تركيب متخيل ، وان اشكال الفهم هى التى تؤلف النظام الظاهر للاشياء » ولكنى عندما نظمت البيت المتقدم وهو جزء مندمج فى سلسلة من التصورات الفكرية تقوم عليها القصيدة التى مطلعها :

حبسبة قلبى لوعرفت بلاءه لأقصرت لومى والحياة بلاء

لم أقر ذاك متأثرا بفلسفة « كانت » هذه ولم يخاطر ببالي تماما ما قاله هذا الفيلسوف ، فهى نتيجة احساس حاصر قذفت به البديهة إلى العقل المفكر فطبعة بطابع الفلسفة ، فالفرق بينى وبين « كانت » إذا صحت المقايسة فى هذه النظرية هو الفرق بين خواطر البديهة والاحساس الشائر المفكر من جهة ونتائج التفكير الطويل الموجه عنايته إلى دراسة الحياة من جهة أخرى ، وان شئت فقل هو الفرق بين بداهة الشعر وتأمل الفلسفة ، وهذه هى النقطة التى يفترق عندها الشعر والفلسفة ، وفى الوقت نفسه هى الملتقى الذى يندمج فيه الاثنان.

فأما الافتراق ، فن حيث ان الشعر وحى النفس المتأثرة التى لا تبعد كثيراً فى الشبه عن عدسة الفوتوغرافية فتعكس عاينها صور المرئيات فتعكسها هى بدورها « فوراً » على اللوحة والفيلم كما هى ، من غير أن تبدل من حقيقتها الا بقدر ما فى النفس من استعداد للتفكير وتكييف المعانى بقلبها الخاص ، ولكن الفلسفة نتائج بطيئة لتفكير مستمر منظم يقلب حقائق الحياة ودقائقها فى صمت وبرود ويقابل بين الأشياء ثم فى النهاية يكون رأياً باتاً يحكم به حكماً عاماً يشمل الوجود .

وأما الالتقاء ، فيتبين فى ذلك الانطلاق الذى تنطلقه الخواطر الحرة فى جو التأثيرات العاطفية العميقة ، كما تنطلقه الأفكار الهادئة المسوقة بدافع البحث وجاذبية التصور ، فيخلقان معاً فى جو واحد يرسلان منه رسالة الشعر ورسالة الفلسفة .

وواجب فى نظرنا أن يتحد الشعر والفلسفة ، وبعبارة اجلى أن يكون شعر الثقافة الحديثة فى العصر الحاضر فلسفياً عميقاً جذاباً ، إذ ما قيمة الفكر الثاقب المتسلط على أعماق المسائل الانسانية ، مهما تباينت القابها اذا كان هذا الفكر لا يصنع شيئاً قيماً فى اكتشاف مجهول من عالم المجولات يتوارى فى محيط النفس أو فى سراديب السريرة وما قيمة هذه الحياة الفياضة الثروة بشتى المباحج والمتع والحافلة بصنوف الفكر والأعمال ، إذا كانت واقفة موقف العجز عن استشفاف ما هو مخبوء وراء الظنون والفراسة واكتشاف المعارف المهمة

وهكذا لا تزال البديهة تقذف بأوحالها متسائلة ومستنكرة ثقوب

الفكر وفيضان الحياة ورثها مع هذا العجز الفاضح ، فيكون الشعز الفلسفى هو الصدى الزنان الذى يجيب عن هذا التساؤل والاستنكار ويكون هو الوسطة التى تحمل هذه الصورة القوية فتجمل بها وجه الحياة .

وللعلم صله وثيقة بالشعر لكانها صلة تكميل فحسب ، فإن صلة الفلسفة به أوثق وأكبر ، لأن فى طبيعة العلم البت والاستقرار وبروز الحقائق المجردة ، عكس ما فى طبيعة الشعر - والأدب كله - من الترجيح وتموج العواطف وتجادب اصداء النفس ولمعان الالتفاتات الذهنية وحرارة التصوير ، من كل ما يستلزمه الخيال ، ويستدعيه التأثير على النفس ونقل الأحساس من مستواه إلى حيث يستحسن الأديب

وهذه الخصائص الشعرية والأدبية نفسها تجدها فى طبيعة الفلسفة بأنواعها ولهذا فإن الصق العلوم بالأدب هى العلوم التى يغلب عليها التمجج والحادية والانطلاق .

ثم ليس معنى ذلك ان الأدب المطبوع بحاجة صارخة إلى هذه العلوم كلا هذا مستحيل فالأدب ليس بمحتاج إلى العلم الا احتياج ترف وتحليه ليس إلا ، لا احتياج ضرورة ينقص بنقصها جوهره أو يتلاشى ، فهذا رأى فج لا بد من طرحه والاعتراف الصريح باضمحلاله وفساده ، كلما تقدمت الأفكار وتوغلت العاطفة الانسانية فى تقدير نفسها ، وذلك ما تضمنه حضارة المستقبل كمنظرية بديهية مرتكزة فى تقريرها على بذور وأسس من حضارة الحاضر تتصل بسبب من حضارة الماضى أيضاً ، لا سبيل

لشرح براهينها واستيعاب درسها هنا في حكمة موحزة أو تأملية واحدة
غير ان ما في طبيعة الأديب الكبير نفسه والأديب القدير الموهوب - أى
أديب قدير كان - من الاستعداد لفهم مهمته وطبيعة فنه بوضوح ، كافل
بتقرير رأينا هذا الذى لا يحصى للأديب المفكر من وجوب فهمه متى كان
يشعر لنفسه باحترام وتقدير.

فهمه بوضوح ، كافل بتقرير رأينا هذا الذى لا يحصى للأديب المفكر من وجوب فهمه متى كان
يشعر لنفسه باحترام وتقدير.



والاستعداد لفهم مهمته وطبيعة فنه بوضوح ، كافل بتقرير رأينا هذا الذى لا يحصى للأديب المفكر من وجوب فهمه متى كان

يشعر لنفسه باحترام وتقدير.

رجولة كاملة

لعل الرجولة لا تكمل ، أو لا تكون قريبة من الكمال — فالكمال المطلق محال على الانسان — الا اذا برزت في كثير من مظاهر الإنسانية المعروفة . فالعالم مثلاً لا يكون رجلاً كاملاً أو قريباً من الكمال اذا فقد ميزة الشجاعة ، وظل فيها مغموراً متخلفاً ، مهما كان كبير العلم ، والحاكم لا تكمل رجولته اذا تأخر أو نقص في ميدان حرية الفكر مهما تناهى في عدالة الحكم ، والجندي لا تكمل رجولته اذا تخلف في موهبة العقل وحسن التصرف مهما برز في ميدان القتال .

وهكذا تستطيع ان تمضى في ضرب الأمثلة على هذه الأقيسة .

وفي رجالنا البارزين من يتمتعون برجولة كاملة قد لا يكون من حسن حظنا الاطلاع عليها لاسباب متعددة لا تنفاد توفر الفرص لاختلاطنا بهم واكتشاف رجولتهم عن كسب ، او تقصير همهم أنفسهم في ابراز رجولتهم للرأى العام ، واكتفائهم ببعض النواحي التى ملأت نفوسهم وشغلت تفكيرهم وحالت بينهم وبين الإلتفاع من تقدير الرأى العام للرجولة الكاملة المدفونة في شخصياتهم .

ولقد أتيت لى ولغيت فى هذه البلاد ان نعرف شخصية فذة قادرة على ابراز رجولتها الكاملة فى عديد مظاهر الإنسانية .

هذه الشخصية هى شخصية صاحب المعالى وزير المالية الشيخ عبد الله

السليمان ، فكلنا نعرف هذا الوزير العظيم في ميدانه المختص ، وهو الميدان الذى يقوم فيه بالاضطلاع باعباء أضخم وزاوة وأوسعها حيث يدير شئونها بمواهب فريدة ممتازة يبلغ بها غايات تضرب الرقم القياسى فى سياسة المال واستثماره واكتشاف موارده بصورة تجعل رفاهية الدولة أمرا مرموقا بالتقدير والإعجاب من جلاله الملك وسمو نائبه ورجال حكومته وأفراد شبابه وعقلاء البلاد الأخرى فى الشرق والغرب .

ولا تقف الصورة الباهرة عند هذا الحد فى السياسة المالية .

ولمكناها تظل مستمرة الإشعاع فى كيفية ضبط الموارد وحفظ منافعها واستخدامها فى أقوى المشروعات والأهداف التى يجب ان يستثمر المال الغزير من طريق تعميمها .

هذه المقدرة ، بل جانب واحد من جوانب هذه المقدرة كفيل ان يجعل الشخصية التى ينبعث عنها بسمه مشرقة فى فم الدولة والشعب ، وإيقاعا فخما فى اغنية الملك والإدارة ، ونفرا هائلا يعتز به العصر والبلاد .

كان من الواجب ان لا يطلب الإنسان مزيدا من الإشعاع فى هذه الشخصية اللامعة ، فما وراء ذلك مزيد لمستزيد . ولكن هذه الشخصية لا تكتفى بصولتها الواسعة فى عالم الادارة المالية وانما تسعى الى السكمال بصور أخرى من البروز الذى يضيف الى الكبارا كبارا ، وإلى الاحترام احتراماً وإلى التقدير العظيم تقديراً عظيماً لا يقل فى روعته عن هذا الجلال .

فكما برزت شخصية الوزير الكبير فى عالم المال برزت كذلك فى عالم

الخطابة والتوجيه الاجتماعي والسياسي ، حيث استطاعت على البعد أن تجعل هذا القلم المتحفظ يرعف لا بممداد على الورق وإنما بموجة طاغية من الإعجاب في صورة مقال قصير انتزعت كل لفظة فيه من عاطفة عميقة لا يثيرها إلا أعنف الآثار الإنسانية التي يجتمع فيها الإخلاص والقوة .

رأيت هذا الوزير الفذ وهو يلقي خطابا سياسيا مرتجلا في اليوم السابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٩ في الحفلة السياسية التي أقامتها الجالية الأندونيسية في جدة تخليدا لعيد استقلال بلادها ، فيأتي ببيانات بينات تنطق فيها العقلية السياسية بلا تصنع ولا تزوير ، كما نطقت قبل ذلك البداة المالية في شتى أعمالها بلا تلكؤ ولا كلفة .

رأيت هذا وسمعته فقلت لجليسى على مائدة الشاهي . اني هذا الميدان أيضا يتقدم هذا الرجل الفذ وهو ليس بميدانه ، ويجيد فيه الكلام على غير استعداد للكلام ؟

قلت هذا مدفوعا اليه بعامل وجداني خفي

فأجاني صاحبي :

ليست هذه هي المرة الأولى يظهر فيها الوزير خطيبا في الجماهير ، فقد شاهدته يخطب مرتجلا كذلك في حفلة البنك العربي التي أقامها لبعثته في هذا المكان .

قلت أجل شاهدته أيضا تلك الحفلة ، فلم يستثر إعجابي فيها قيام معاليه خطيبا اذ ذاك فأنا كان يشرق في أفقه الطبيعي ، حفلة البنك حفلة مالية

اقتصادية ، وليس بمستنكر عليه أن يتكلم في حفل المال والاقتصاد عن موضوع المال والاقتصاد ، فإن اعجابي به هنا لا ينصب على نقطة انطلاق لسانه بالخطابة ، ولا على تبريزه في الارتجال ، وإنما أعجب لأنه وزير مالية لا وزير خارجية ، ومع هذا فهو يؤدي هذا الواجب العجيب كسياسي كبير وكأنما يتكلم في موضوع اقتصادي بحت .

• • •

ومن نواحي رجولته السكاملة ناحية ميله إلى الادب ، وإلى الديمقراطية وإلى صراحة الفكر ، فقد لمست هذا في أحاديثه التي ينشرها على زائريه في داره الانيقة ، وفي تلك الأحاديث نماذج لامعة من هذه الصفات لولا ضيق النطاق لسردت منها ما يشار كنى القارىء لمسه والإحساس به ، ولكن ما الحاجة إلى ذلك ومجالس معاليه مشهورة ظاهرة .

• • •

هذه مظاهر صادقة التعبير من مظاهر الرجولة ، والرجولة السكاملة ، أو الرجولة التي تتسع فيها آفاق المقدرة حتى تشمل دنيا من المواهب والاعمال لا يزال مجال التنافس فيها داعياً إلى الصيال .

وفي مثل هذا فليعمل العاملون

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

بنيتو موسوليني

الآن وما بعد الآن الى ما تشاء الأقدار، ترفع إيطاليا رأسها فآخرة بزعمها العظيم، وتهتز جوانب المملكة قائمة قاعدة بما أتاحته لها الاحوال السياسية وخلقته الظروف من ابراز هذا الرجل الفذ « بنيتو موسوليني » زعيم الفاشيت الذى خلق فى إيطاليا روحاً جديداً لم تعرفه نهضاتها السياسية الاجتماعية حتى ولا فى زمن « مازينى » و « كافور » و « وغاريبالدى »

ولا إيطاليا الحق البين فى ان تفخر ما طاب لها الفخر، بشخصية هذا القائد المحنك فأن النظم الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية التى أوجدها لها بما تشمله تعاليم الحزب الفاشيستي ويسير عليه الروح العسكرية وتؤسس عليه التربية التعليمية فى إيطاليا شىء ضخم ليس باليسير ولا بالاضئيل، وهو شىء لا يقاس بالأرقام ولا بالمعايير الفكرية، فإنه فوق الصفة والحدود، وإن نتأجه العملية لما يعيد لايطاليا - لو نجحت كلها - مجدها اللامع فى عصر نهضتها الذهبية القديمة ويربى عليها بما ليس فى مستطاع الكتبتين ان يضعوا حدوده الآن .

وليس فى هذه الكلمة متسع لنذكر نهضة ايطاليا القديمة فى زمن الرومانيين ووصف مجدها الدائر بما فيه من اثر الفن الذى نقل عنها الى العالم المذنى وما فيه من أثر العلم وروح الصناعة ثم نكرر راجعين الى عصر موسوليني العظيم خالق ايطاليا الجديدة انقابل بين النهضتين ونرسم لكل منهما حدوده الواضحة ونستخرج معالمه لنثبت تفوق النهضة الموسولينية وعظم سريانها بهذا الروح

الذى نسمع به ونشهد اثره فيما لايطاليا الحديثة من تقدم وتفوق فى الدول
الاوربية الحاضرة رفعها بنسبة ٧٠ ٪ عما كانت عليه من قبل موسـوليني
ومبادئه .

نكتب هذا بمناسبة كتيب جديد أصدره الأستاذ كريم ثابت محرر
القسم الخارجى فى جريدة المقطم وصف فيه شيئاً من حياة موسوليني ،
ومقابلته اياه فى قصر « كيجى » بوزارة الخارجية الايطالية بروما ، فاستغرق
مائة واثنين وخمسين صفحة صغيرة اتى فيها على حياة الزعيم الايطالى
الكبير فى حدائته ورجولته الى تقلده زمام الاحكام فى ايطاليا . الى الزمن
الذى قابله فيه فى قصر كيجى ، غير أننا نعرف ان موسوليني ليس بالرجل
الذى يجب ان تعرفوا حياته او تنفصل عن حياة الأمة التى عمل لها حركتها
وعن تاريخها لا سيما اذا كانت هذه الأمة عريقة فى القدم وحافلة باجداد
النهضات التاريخية كإيطاليا . فإن الحديث عن موسوليني يستلزم الحديث
عن تاريخها بصفة تجعل الصلة مكينة بينة بين عقلية هذا الزعيم وتاريخ امته .
فإن الحق الذى لا محيص عنه هو ان السياسة الايطالية الحاضرة كلها عبارة
عن جهود صرفها السنيور موسوليني لتقديم هذه الدولة والحاقيها بالصف
الذى يتبوأه غيرها من متفوقات الحكومات الاوربية المستعمرة الطامحة الى
ما فوق ادراك ومرامى وجهود الرأى الحكومى القديم فيما قبل سنة ١٩٢٢ .

وللأرقام والمميزات المحسوسة قيمتها فى هذا الموضع ، فكان على
الأستاذ المؤلف ان يضع بين ايدي قرائه بياناً مسهباً ناطقاً بالفرق ما بين
ايطاليا الأولى وايطاليا الموسولينية الحاضرة . وصحيح انه اشار الى هذا
الفرق فى الفصل الرابع عشر الذى عقده بعنوان « موسـوليني والدولة

الفاشية « صفحة ١٠٦ » غير انها اشارة غير كافية في كتاب يحوى ترجمة حياة سياسى عبقرى ، لأنها انما هى سرد لأعمال الفاشيست فى ايطاليا ، عليها صفة الجفاف والجمود ، فليس فيها الجاذبية التى ترجى من كتابة يقصد منها تصوير شخصية تاريخية بارزة بدلت الافكار والارواح والنظم وبعثت فى الشعب حياة غير الحياة الأولى ، لا سيما وهذه الشخصية ترى « أن الشعب الايطالى شعب « كائن » فقط وليس بشعب « حى » فى الحالة الأولى : كل باعث سليم من بواعث الحياة مفقود ، وكل حافز لليقظة والتقدم هادىء فكأن الانسان مضطر الى تقليد بعض الحيوانات التى تتظاهر بالموت لتسلم من فجعة الخطر ، ولكن كل غزوة من غزوات التمدن هى مأساة وخطر فى آن واحد ، لأن الفرد ليس شيئاً او هو على الاكثر جسر لا هدف ، فيجب ان يحسب نفسه مباركاً اذا اتيح له فى بعض الايام ان يشق الطريق إلى المستقبل . إن خلق المستقبل هو الوسيلة الوحيدة للخلاص والتعزية . لقد ماتت الآلهة وأقبل « يوم السوبرمان » كما يقول موسوليني نفسه فيما يشقله عنه المؤلف فى صفحة ٥٩ . وإذن فهذه هى البذرة التى نبتت منها المزرعة الايطالية الحديثة ، وكنا نتلص فى كتاب الاستاذ ثابت أن نرى نضارة تلك الروح وبهجتها وجلجلة الحياة الجبارة فيها تبدو فى الغدران والجداول والثر والافانين وما إلى هذه من مستلزمات تلك المزرعة التى أكبرت إيطاليا فى أعين الامم ، فلم نظفر بطلبتها فى البحث ، ومع هذا فإننا نكبر عمل المؤلف ونستظرف كتابه الجديد .

والخلاصة فإن موسوليني هو رجل إيطاليا الفذ ، وللبعض أن يعتبره أحد أفذاذ العالم الاوربى المعدودين على الاصابع ، وهو رجل كبير النفس

قوى الشكينة واسع الأمل بعيد الطموح بارز الشخصية المتفوقة في القرن العشرين . ويحسن بنا أن ننقل للقارىء شيئاً من كلماته وآرائه عن الفاشستية ليستطلع منها روح هذا الديكتاتور العبقري .

قال في كتابه الجديد الذى ألفه بنفسه عن « الفاشيزم » وهو المذهب الفاشيستي :

« ان فكرة الفاشيست الافرديّة تصر على اهمية الدولة وهى تستقبل الفرد عندما لا تتعارض مصالحه مع مصلحة الدولة بل تتفق معها ؛ تلك الدولة التى تقف كمظهر للرغبة العامة للانسان وكوحدة تاريخية تتعارض مع الحرية القديمة ، لأن هذه انكرت الدولة باسم الفرد . وبما أن الحرية نتاج حياة جماعة حية من الناس فإن الفاشستية تقوم بالحرية التى يجدر الحصول عليها وهى حرية الدولة وحرية الفرد فى الدولة »

« ان الافراد يجتمعون بالنظر لمصالحهم المتعددة ، وهم يؤلفون الطبقات والنقابات بالنظر لمصالحهم ونشاطهم الاقتصادى على اختلافه ، لكنهم قبل كل شئ يؤلفون الدولة التى ليست بقضية عديدة ، أو قضية مجموع الأفراد الذين يؤلفون الاكثرية ، لذا فإن الفاشستية تعارض هذا النوع من الديمقراطية الذى يساوى الأمة بالاكثريّة »

« ليس فى الفاشيزم جنس أو قطر جغرافى محدود ، بل شعب مرتبط بروابط تاريخية وجماعة موحدة مفكرة ومتشعبة برغبة فى الحياة والقوة والوعى النفسى والشخصية »

« الحياة الحقيقية للشعب هى التى تجعلهم يشعرون بالوحدة المعنوية . »

« إن حق الاستقلال الذاتي لا ينبعث من شكل أدبي أو مثل أعلى للوعي النفسى أو من شعور واقعى ، بل من اظهار الارادة بنشاط ووعى نفسى وسياسى والاستعداد للبرهنة على الحقوق »

« ان الدولة الفاشستية كمظهر أعلى وأقوى للشخصية ، قوة روحية وهى تجمع كل حياة الفرد العقلية والاخلاقية . »

وقد ولد هذا الزعيم سنة ١٨٨٣ م فى قرية بريدايو قريباً من مدينة فورلى من اب حداد أمى ، ثم دخل المدرسة وحصل علومه الابتدائية ، وكان يطمح ان يكون مدرساً فى إحدى مدارس فورلى ، وتقدم للامتحان لنيل هذه الوظيفة فخالته احدى الرسميات بينه وبينها فلم يحظ بها ، وهنا يقول صديقه الكاتب السويسرى وليم مارتن رئيس تحرير جريدة جورنال دى جنيف . « ولعل هذه الحادثة اكثرت الحوادث تأثيراً فى حياته فلا شك أنه لو عين فى هذه الوظيفة وقنع بحكم تلاميذه بدل الأمة الايطالية كلها لتغيرت وجهة تاريخ ايطاليا ولظل اسم موسولينى نكرة فى الأسماء . »

ولما كبا دون هذا المطمح وأصبح فى فقر ظاهر توسط له اصدقاء أبيه فى تعيينه محرراً فى جريدة اشترائية فى فورلى فنشر فيها مقالات جريئة لفتت نحوه نظر الحكومة فقر الى سويسرا ، ثم عاد الى ايطاليا ، فنظر اليه اصحاب جريدة « افانتى » بمدينة ميلانو كمغنى عظيم فعينوه رئيساً لتحريرها وكانت اشترائية النزعة ايضاً .

ثم انضم الى الجيش الايطالى فى الحرب العظمى وكان فى نحو

الحادية والثلاثين من عمره وحارب في خارج إيطاليا ثم عاد إليها وهو يحمل مبادئ وطنية جديدة تخالف المبادئ الاشتراكية ، فبثها بحماس في طائفة العاطلين من الضباط والجنود والعمال الذين عادوا من الحرب ولم يجدوا عملاً ، ثم ما لبث ان كوّن من هؤلاء جيشاً زحف به على روما في سنة ١٩٢٢ م فتولاها واصبح زعيم ايطاليا الحقيقي .

الحالات السياسية والاجتماعية

والاقتصادية في البلاد

استعراض وتقرير

الحالة السياسية ، والحالة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية ، في هذه البلاد توشك أن تكون جد متشابكة ومتفاعلة تفاعلا طبيعياً متضامناً . ويستطيع المرء أن يقول أن إحداها نتيجة الآخرين ، أو أن الاثنتين نتيجة الواحدة ، فسياسة الحكومة الرشيدة في هذه المملكة من الناحيتين الداخلية والخارجية توحى مقدرات البلاد الاجتماعية فتكون أوضاع المجتمع الحجازي النجدي ، وإن شئت فقل المجتمع العربي السعودي ، هذا التكون الخاص السائر في سبيله بخذر وأناة وانطلاق ، والذي أصبحت تتحمل أمامه مشاكل كانت معقدة وتفتح له تدريجاً سبل للفهم والدراسة والاستفادة من الأشياء الجيدة كانت مستغلقة ، ثم هذه السياسة نفسها سالفة الذكر تظمن قواعد ووسائل الاقتصاد ، وتجعل أهم موارد هذه البلاد ميسوراً موفقاً . ولنضرب مثلاً معروفاً لا نرى ضيراً من ذكره المعاد على الأقلام والألسنة ، وهو أنه حالما توطدت دعائم الأمن الشامل في هذه المملكة ، وسادت هذه الفكرة في أذهان الراغبين في الحج توافد هؤلاء إلى الحجاز زرافات ووحداً من كل حذب ينسلون ، وأصبحت قوائم الاحصاء لمقادير الحاجين تزداد أرقامها سنة فسنة ، حتى بلغ عدد الواردين في هذا العام زهاء أربعين ألفاً

أؤيزيدون « راجع جداول الإحصاء الرسمية للحج » ونحن بضربنا هذا المثل المقرر في الأذهان تصور جانباً من أبرز جوانب الموارد المالية هنا ، وفي الوقت نفسه نلص الحقيقة من أوضح ملامسها ، ثم بسبب المعاهدات السياسية والتجارية بين المملكة العربية السعودية والخارج أصبحت التجارة نشيطة لا نقول نشاطاً ممتازاً ولكنه نشاط نسبي نرجو أن يتقدم مع الزمن وأن تقوى أسبابه ودوافعه فيتوطد مركز التجارة وتصبح وعليها المعول في هذه البلاد ويتبعها تقدم الصناعة والزراعة والتعليم بنشاط أهل كل قسم من هذه الأقسام .

والأدب ! ما شأنه وما صلته بالحالات الثلاث الكبرى المنوه عنها في صدر المقال ؟ أجل له بها صلة تامة ، فإنه بتأثير استتباب النظم السياسية العادلة في الحكومة ، وإعطاء كل ذي حق حقه من الحقوق الاجتماعية والمدنية ، يجد الأدب الناضج ثروة خصبة من الأفكار الجادة ، لا الهازلة وأنا زعيم أن سيسود شعر التفكير والحياة العميقة ونشر الرصانة والفن ، وسيحلان محل الشعر الفاتر المبتذل ، والنثر الأجوف المضطرب ، وسيصبح للأديب بفعل التطورات الحية المرضية مرتع خصب لوصف خفقات القلوب الصادقة ، وحركات المجتمع الجليلة ، ومجرى الأفكار النيرة ، وجمال الحياة المطمئنة ودقتها ، وبهذا سيزداد النظام قيمة واستقراراً ، وسيحل الاطمئنان والتقدم محل القلق والركود ، اللذين يظهران على بعض النفسيات عند كثير من المتألمين .

نعم إنه سيقضى شيئاً فشيئاً على آثار الاضطراب والضعف بفضل تقدم الرجال الممتازين إلى القبض على نواصي الأعمال المجدية والمراكز

الجيدة ، وتم حياة اجتماعية تبشر بالمستقبل الحسن فيها وفي سائر نواحي الحياة المتعددة .

ومما يلفت النظر في الحياة الاجتماعية في الحجاز ونجد سيادة هذه الديموقراطية فيها ، التي لا تتكىء على نظم سياسية مختلفة الألوان كالنظام الفاشستي مثلاً أو النظام الشيوعي أو الاشتراكي ، ولكنها تتكىء على دعائم الأخلاق العربية الإسلامية ، وهي تتكىء قبل هذا على فطرة العروبة وفطرة الإسلام الصافيتين النقيتين المنسجمة إحداهما في الأخرى انسجام الماء النقي مع كأس الزجاج الرقيقة .

وعلى ذكر الديموقراطية السياسية فإننا نقينون أن نشير إلى أن هذه السياسة الراشدة التي تحتطها حكومة بلادنا الفتية إنما هي سياسة الوضع الطبيعي والعدل الحازم والبساطة المستنيرة والصفو المؤدى حتماً لأن يسود التفاهم والرضى وينبسط الشعور العام لنفاذ بصيرة القائم بالأمر والجالس على العرش والقابض بحنكته وسمو أدراكه على ناصية الحكم ، حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، وتتضح معالم الكفاءة والأهلية لهذه البلاد حتى تتجسم أمام الناظرين بعد أن يقدح الزمن من زنادها شرارة المواهب المستسرة رويداً رويداً ، ولا بد للسائر أن يصل .

نكتب هذا لا تبشيراً بمستقبل بعيد ، ولا تخيلاً لمركز ممتاز مستحيل نبغيه لبلادنا وأمتنا وحكومتنا ، ولا ترقباً لآمل خافت أو غير خافت يشغل منا موضع التفكير ، لا ، وإنما نقول ما قلناه ونحرم على أبواب نضج في الكفاءات الصحيحة يواجهه هذا الشعب العزيز ، وقد درس وتعلم

من شتى التجربات والمحاولات ، واستعد لأن يغتبط بنتائج تجاربه ومحاولاته ، وهو مستعد أيضا للأقدام على كثير من أمثال هذه التجارب والمحاولات ، فهمى كلما كثرت عنده كانت قوته المعنوية أشد وأجدى عليه بالفائدة ، ولن تخيب أمة تملك قوة التجربة وقوة الأمل .

ونصيحتنا للأمة أن تتمسك بأهداب سيرها المستقيم ، وأن تكون عملية بكل معنى الكلمة ، وأن تعير جانب الجد والاهتمام بشئون أفرادها ومستقبلها الاجتماعى والاقتصادى أعظم الأقساط من حياتها وتفكيرها ، وأن تزيد مما هى قائمة عليه من هذا التعلق والإخلاص لمليكمها زعيم الوحدة العربية العظيم ، وأن تعظم الثقة بنفسها ثقة توجهها فى طريق العمل المنتج فى شتى نواحي الحياة .

الحالات السياسية والاجتماعية

والاقتصادية في البلاد

(٢)

عود على بدء ، وتفصيل بعد اجمال

كنا اقتضينا الحديث اقتضاباً في فصلنا الافتتاحي الذي عقدناه بهذا العنوان ، والذي نشرناه في العدد ١٥٥ من هذه الصحيفة في هذا المكان والذي كنا افتتحنا به عهداً جديداً من عهود الصحيفة له ما بعده ، وكنا لم نتبسط في حديث هذه الحالات الثلاث التي نوهنا عنها ، وكان عملنا حينذاك ينحصر معظمه في بيان الارتباط الطبيعي بينها . والآن نستأنف كرة الكتابة في كل قسم منها اداء لواجب التفصيل الذي يتطلبه منا الرأي العام ، وللرأي العام حكمه على محرري الصحف في كل قطر وفي كل وقت لأنه قوة أدبية تجب مراعاتها من جانب الصحافة على الأقل .

يقول قائل : ولكنك اطنبت في التمهيد وأطلت المقدمة فإبال الموضوع؟ وأقول بدوري : حسبى مقدمة وتمهيدا وعلى بنجر الحديث .

الحالة السياسية

هذه المملكة العربية السعيدة باستقلالها والمتفائلة بمستقبلها والعابرة

في طريقها إلى امتلاك النجاح ، لا تتأثر في سياستها بقديم ولا جديد ، فلا
تجمد عند خطة سياسية معينة ، ولا تقتحم مجالا سياسياً لا تملئها عليها طبيعة
بلادها الجغرافية وتقاليد شعبها العربي ، ومصالحها الذاتية والمشاركة مع
جيرانها وأصدقائها ، وواجباتها نحو من تحمل لهم في عنقها أجل الواجبات
بحكم الإدارة وحقوقها على هؤلاء الذين تدار شؤونهم من قبلها بكل دقة
وعناية . لا تراعى برنامجاً سياسياً صالحاً قبل أن تصهره في بوتقة مصالح البلاد
ومقتضيات الزمن وأحوال حياتها الخاصة ، ثم هي تقبل الصالح المفيد بهذا
الشرط الأكيد دون مفاضلة أو ترجيح . تأخذ من قواعد السياسة القديمة
أكثرها مرونة وأدناها انطباقاً على طبيعة هذا العصر الحافل بشتى الحضارات
والذي يقسرساسته وزعماءه قسراً على التسامح والانطباع ، وتأخذ من قواعد
السياسة الحديثة أولها نسبة للعروبة وأبسطها مشا كل في التقدير الاجتماعي .
تحب الخير لجيرانها وتتفاهم معهم وتعطف على قضاياهم - كما قال زعيمها
على رؤوس الأشهاد - الأمر الذي ينتظر من مملكة مثلاً تضم في قالب
محكم متين عدة مقاطعات هي : الحجاز ونجد وعسير ، وهي المقاطعات التي
تكون قلب الجزيرة العربية ، ويقوم عليها عاهل تتراعى إليه أنظار العرب
بنعامة الوحدة العربية الكبرى التي تشمل اصقاع الجزيرة أو شبه الجزيرة .
أجل هذا وأكثر منه ما يجب أن ينتظره العرب من حكومة هذه المملكة ،
وهذا وأكثر منه ما هي قائمة عليه سياسة هذه المملكة ، أو على الأقل
ما هي مستعدة لأن تقوم عليه وتهذب من حواشيه وتتوسع في فضائله
في المستقبل ، وما هي عاقدة عليه العزيمة برأ بنفسها وحباً بجيرانها وراحة
لغيرها واعلاء لمستقبل الدولة الإسلامية ، والحكومة العربية التي ستكون

صاحبة الشأن الاسمي في سياسة المسلمين والعرب ، والتي ستقود لغة الضاد وأبناء الضاد إلى حيث تشاء عظمة اللغة العربية وعظمة تاريخها أن تصل إليه . وتسير هذه المملكة في علاقاتها الخارجية مع الدول على قواعد التفاهم والتقارب وتبادل المصلحة — إذا امكنت — أيأ كان شكلها ، وتتبع في نظمها الداخلية الإدارية طرق الروية والأناة والأخذ بالأحسن ، فبسلطة الشرطة تراقب وتقض وتحقق ثم تبنى أحكامها على نتائج معقولة يسفر عنها التحقيق الدقيق ، وبالقضاء تقيم الحقوق الشخصية والاجتماعية حتى يستقر الحق في نصابه ، وبالإدارات الأخرى الحازمة تضمن للشعب سيراً يرضى به الأفراد والجماعات ، وتغبط به الخاصة وتستسيغه العامة .

هذا هو برنامج الوضع السياسي لهذه البلاد تقريباً ، كما نفهمه ونتوقعه ، وهو جماع السياسة الدبلوماسية والإدارية بمخاديرها وطران الإصلاح الجميل المطابق لطبيعة هذه البلاد على أقصى مداه .

الحالة الاجتماعية

أما الحالة الاجتماعية ، ونعني بها علاقات الأفراد والجماعات فيما بينهم ، فيتخلص برنامجها الواقعي فيما يلي :

ليست أخلاق الناس في الحجاز وما يجاوره بالأخلاق الصعبة النائية التي تطبعها الشراسة والتنافر وحب السطوة والأذى ، بطابع يلحق هذه الأمة بالشعوب الهمجية أو المتوحشة كما هي في شعوب عرفت بالتوحش والشذوذ ، كلا ولا هي بالأخلاق الرخوة المتفسخة التي ليس لها عماد من

قوة الشكيمة ، فلا كذلك ، وإنما هي لزم ما بين الصلابة والسهولة ، يغذوها عرق العروبة الكريم فينبض منه دم الكرامة والرحمة والغيرة والنبيل ، ويغذوها الاسلام فيديرها على المحبة المتبادلة والتساهل والصدق وإرادة النفع للإنسانية العامة ، فلهذا الاعتبار لا تقوم الاحوال الاجتماعية فيها على تضحية الفضيلة أو قتل الروح التلاؤمي ، ذلك بالرغم من أن هذا الروح لما يزل بعد في حاجة شديد جداً إلى قوة يتدعم بها ليكون التلاؤم والتضامن بين الافراد والطبقات أكبر صورة من هذه الصورة الحاضرة واجدى عائدة على هذه الامة المفتقرة إلى الاتحاد والتفاهم الفردي والاجتماعي لتكمل لها أسباب النهوض ، وليش في دماها عزم التضامن ، فهي تحسن صنعاً إلى نفسها لو لجأت إلى دعاية واسعة لبث روح التلاؤم والتماسك بين الأفراد ، وطرحت وسائل الشقاق والتباعد التي تدل على فتور العقلية الاجتماعية وانصرافها عن عنصر يفيد الامة ويعلو بها سريعاً إلى مستوى النضوج الاجتماعي ، فإن علم الاجتماع يقرر أن امكان التغلب على المشاكل الفردية بصفة تطيل تلاشيها دليل على استعداد شعب لبلوغ مكانة اجتماعية بارزة ، وهو في الوقت نفسه دليل أيضاً على صلاحية انبثاث روح القوانين الحية وانطباقها على طبيعة ذلك الشعب . ونحن في درجة إذ نشعر أن شعبنا هذا صالح لشتى التجربات الاجتماعية المفيدة ومستعد تماماً لتلقي دروس النهوض التي توجهها إليه الحوادث فتعلمه كيف يحتمل على الشجاعة الأدبية التي تخرجه من حالة الخور والانقسام إلى حالة إصرار ثابت على التفاني في وحدة قومية ترفع رأسه وتؤهله لأن يفتح فاه ويرفع عقيرته متغنياً بأنشودة التفوق واحترام النفس .

لا نريد ثرثرة الأفراد باللغو ، والدفاع عن النفس من طريق ملتوية وحقاء هي طريق التعريض بالغير ، أو التصريح بتجسيم المعاييب وتهويلها وادعاء ما ليس بالصحيح على حساب الأمة كما يفعل صغار العقول ، وضال التفكير في الأمم ، فإن من يقول غير من يفعل ، ومن يتلمهى غير من يحس ، ومن يأتي السطحيات غير من ينحر الحقائق ، ومن يعوم على الشواطئ غير من يغوص في الأعماق . ونحن لا نحب لأمتنا أن تكون « أمة مهملة » غير عابئة بنفسها يلجأ أفرادها إلى الادعاء بدل العمل ، وإلى التظاهر بالإصلاح بدل التفكير في الاستفادة من الإصلاح ، فهذه حالة اجتماعية وخلقية لا تتناسب مع كرامة الأمة المستعدة للرقى المنشود .

الحالة الاقتصادية

وتتبع الحالة الاجتماعية عندنا الحالة الاقتصادية ، غير أنه وإن كان وضعنا الاجتماعي يبعث على التفاؤل أكثر من التشاؤم - ولا تشاؤم في حياة الأمم الفتية - وهو إلى جانب الإصلاح والقوة أكثر منه إلى الجانب الآخر ، غير أن في حالتنا الاقتصادية نقصاً جد محسوس ، وأهم أسبابه الأساسية فيما نرى عدم نشاط الصناعة عندنا ، أما التجارة فهي وإن كانت لا تستلزم رموس الأموال الكبيرة فانها تستلزم شيئاً كثيراً من الأسس الضرورية لنشاطها ، والاعتماد على رموس الأموال من حيث كانت كميتها يلزمه وجود رموس الأموال نفسها ، وهذه لا تأتي إلا من طريق الكسب الصناعي أو طريق الإرث المتروك أو طريق المقايضة أو الاقتراض ثم إن التجارة عندنا محصورة في الاستيراد ، إذ ليس هنا ما نصدره

الا ما لا يكاد يذكر ، ولو أن هنا صناعة محلية لتعادت كلفة التصدير وكلفة التوريد ، ان لم ترجح عليها ، فنحن اذا دعونا الى تثبيت قدم الصناعة فإنما ندعو الى اعظم الطرق الاقتصادية في العالم ، وقد نشأ من فقدان الصناعة في الحجاز — بل في بلاد العرب كلها — تهافت الشبان — على التوظيف حتى تضخمت بهم المكاتب الحكومية والأهلية ، وليس في هذا أى فخر — لو أن البلاد ناشطة في الصناعات او ميالة إلى تفضيلها على غيرها ، الامر الداعى إلى الأسف . والرجل العظيم في نظرى من أهل البلاد والذي يحوز المنزلة الأولى في خلود الذكر هو الرجل المثرى الذى يستثمر جانباً من ثروته في احياء الصناعة في هذه البلاد ، وليس هذا بالصعب على الاغنياء ، ثم هو ليس بالامر العيث الضائعة نتائجه ، فهو فوق ما يعطى من المجد اللامع والعظمة في خلود الذكر ، يعود ايضا بربح مادى ، يتوزع على عدة افراد من الصناع ، وينال صاحبه منه اوفر الاقساط ، ثم هو يسترده شيئاً فشيئاً ويسترد اضعافه واضعاف اضعافه بمداومة العمل واستمرار الحركة الصناعية ، في الوقت الذى يستفيد منه آخرون تغنوا بمجده وشادوا بعظمته الحقيقية كما فعل هنرى فورد ملك السيارات في العالم وغيره من أبطال الرجال المالميين .

هذا هو العظيم حقا ، وهذه هى العظمة والعمل الخالد ، لا فتح مدرسة أو بناء رباط مثلاً .

واذا قلت : « الرجل المثرى » فإنى لا أقصر عليه ، ولكنى أعنى أيضاً الشركات التى يتآزر فيها الاشخاص ويتعاونون على تشجيع الصناعة وان

كانوا فقراء ، وان كانوا صغاراً ، وانى لمغتبط جداً بظهور الشركات الحجازية الحديثة ومعجب جداً برجالها الافاضل . فهذه الشركة العربية للطبع والنشر مثلاً ، وهذه الشركة الاخرى لسير السيارات « وان لم يعمل شيئاً جدياً للهيئمة حتى الآن » وانى لأومن أن ستتبعهما ثالثة ورابعة وخامسة (١) إلى ما يشاء نشاط المفكرين والمتمولين وصدق عزائمهم المشكورة المباركة من تعداد . أما ما احب أن يلتفت اليه هؤلاء المفكرون ومن فى صفهم من رجال شعبنا الممتازين فهو التفكير فى تأسيس شركة صناعية تعلم العاطلين والفقراء من أبناء البلاء أصول بعض الصناعات النافعة لتقضى على الفاقة وتبنى المركز الاقتصادى الحقيقى الذى نتقدم به فى غير طنطنة أو تردد أو التواء

(١) لقد صدق تنبؤنا بعد عدة سنوات فتأسست شركة للكهرباء فى الطائف ، وشركة للكوكا كولا بجدة ، وشركة الانشاء ، وشركة للطحين بمكة ، ولشركتنا نريد شركات وطنية اخرى لفصل الجلود ولاستخراج الاسمنت والبتروى ، ولصنع الاقمشة والصابون وغيرها .

علاقة الأدب بالعلم

ليس الاديب الفنان - كما يحسب الرعن - رجلا يحمل قلبه وطرسه ويجرى ، كل همه أن يكتب أو ينظم الشعر ، لا نزوة تجمع به الا وركب رأسه يبرزها الى الناس ، ولا فكرة يتخيلها الا ضرب لنفسه بسهم في ذكرها ولو شائهة كسيحة جوفاء لا يرضاها الفن ولا يتحملها العلم ولا تمت بأية صلة الى قوة أو جمال أو صحة ، ثم هو بعد هذا أديب فنى أو فنان أديب ، وليس الا مخيلة المسكين محل هذا اللقب المكذوب ، لا أيها الرعن الواغلون ! انما الاديب انسان مثقف حظه من العلم والفكر والثقافة والتربية أكبر من حظه من تسويد الصحف ورصف القلم وعرض الجمل الهوجاء ، وإزاء الكلام رغبة في تقليد الممتازين أو مجارة العباقرة ، ثم ليس وراء ذلك الصراخ والهرف إلا قطع الوقت بما لا يغنى ولا يسد فراغا في النفس ، ولا يحدد من حياة الفكر أو نشاط الملكة أو إرضاء الضمير .

أكتب هذه التأملة أو هذا الفصل الجديد وأنا تحت تأثير نشوة لذيدة بعثتها الى نفسى نزعة جديدة فى الأدب من تلميذ مهذب يدرس فى مدرسة الفلاح حيث وجدت فى نزعته هذه - التى سيعرفها القارئون - يقظة جديدة فى عالم الأدب تجعلنى أومن أن فى النشء من ستنفتح نفسه الى مذاهب الأدب الحديثة ، ومن سىأخذ بهذه المذاهب وأساليبها ومراميتها على اعتبار أنها هى الأدب أو لبابه المنشود .

ذلك انه استلقت نظرى فى نزعة التلييد انه يشعر أن للأدب صلة كبيرة بالعلم، ولا أخصص العلم وإنما أعنى على الإجمال علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة الخ. والأدب، لا ريب متصل أكبر الصلة بالعلوم وإن فات ذلك إدراك كثير ممن يعالجون الكتابة الجوفاء، أو الكتابة البسيطة، أو الكتابة التقليدية، أو الكتابة المفروغ من نشرها واستيطانها. كتب الينا تلييد يسألنا كما يأتى :

« اريد أن أعرض عليكم السؤال الآتى، وهو: مم يتأتى الوهم والتشكك وما علاج ذلك ؟ » ولم أكن بالعازم على كتابة شئ عن عادة الوهم، وأحرى بى أنى لم أكن بالعازم أكثر على مزاوله تحديد العلاج لهذا المرض، ولا محاولة اكتساحه من الأذهان، على أن هذا التلييد الكاتب نفسه لم يكن ليطمع فيما أظن أن يرى لسؤاله صدق يتردد على صفحات الجريدة فى يسير من الزمن، وفوق ذلك يعالج موضوعه بعناية خاصة، ولكن لم لا ؟ التلييد نجيب حسبما توسمته فيه، وراقى أنه يسأل عن الوهم، وراقى أكثر أنه يضع السؤال العلمى موضع الأدب، وهذا شئ يشجعنا على التفكير فى حركة الآداب وإعطائها القدر الكافى من وقتنا وعنايتنا وإن كنا لم نفكر أن نفتح بابا للسؤال والإجابة.

الوهم فيما يعرف الدارسون مرض يعترى الأعصاب فتفقده قوة تصورها للمعنويات والحسيات، وهو ينشأ من صدمات عنيفة تصيب النفس فتؤثر على الخيلة والذاكرة. ومن أكبر صدمات النفوس التى تخلق مرض الوهم خلق الخوف الطبيعى إذا زاد معياره عن الدرجة العادية، فعلى

من يعذبه هذا المرض أن يحاول عمل الأمور الجريئة ، وأن يوحى إلى نفسه أن الهم ضعف يجب التغلب عليه ، وأن يقنع نفسه أنه ذو قيمة تقدر فلا يحسن أن يسترسل إلى خزعات الأعصاب المضطربة ، وعليه أن يصنع كل ما من شأنه أن يساعد على تقوية الدم والأعصاب وملكة التأمل والتحقيق ، فيدرس ويكتب ويناقش ويتريض ويستشعر الحياة والجهد من أى طريق يؤدي إلى القوة والنمو الحيوى والاتزان النفسى والمسرة والتفكير .

وبعد ، فواجب جداً أن يدرك لفيف الأدباء صلة الأدب الحى بالعلم ، واستقاء فكر الأديب الواصف للحياة من معين العلم المحدد اصول الغاية وغايات الحياة ودقائق الحياة ، إذ هيات أن يقوم عصب الفن إلا على دم العلم ، وما انضب أن يكون الأدب ، وهو أجمل تعابير الحياة ، شيئاً فاقد الصلة بأكبر وسيله تنظم أحوال الحياة .

خواطر متداخلة

أأكتب عن النظام، ما كيانه؟ ما تأثيره؟ ما فائدته لحياة المجتمع؟ وإسرد ما يسمح به الذهن من منطق وقيل، هذا ما خطر لي، وما سؤل لي احساسى بحاجة الرأى العام اليه أن أتحدث عنه، وليس باللازم والمهم أن يكون الحديث هنا عن النظام محصوراً دقيقاً مائلاً إلى البحث العلمى والتشريح الفلسفى، والتحديدات المنطقية، كما أنه ليس بالميسور لصحفى يحاول الاتصال بالرأى العام أن يحصر بحثه فى حدود معينة من الجدل، ولا يستغرب الناس أن تكون خواطرننا هنا خواطر اجتماعية يدخل بعضها فى البعض الآخر، ويلبس شىء منها جانباً نزاوله من حياتنا، فحسب القارئ من أن نحس وأن ننقل احساسنا إلى الطبقات، وأن نشارك الرأى العام فى ما يخامره من مسرة ومساءة، ومودة وموجدة، وتفاؤل وتشاؤم، وصعود بالفكر والشعور إلى حب النظام واستقبال الحياة، وهبوط بهذين إلى ارضاء الأثرة والتبرم بالحياة وازرائها، فإنما نحن الشعب والشعب نحن، كما اننا فى نفس الوقت جزء من الانسانية العامة التى يزخر بها بحر هذا الوجود المحيط، فنحن جد محتاجين إلى ما تحتاج اليه الانسانية المستقيمة، وجد مفعمين بما هى مفعمة به من عواطف الأنفس وميولها، ومتجهات الفكر وافتاتة، وعليه فرأينا فى النظام البشرى شىء عادى كرائنا فى كل ملابسات الحياة.

النظام أو الانتظام أو الاتساق ضرورة لازمة لمجرى البشرية فى سبيلها فى الحياة، وهو ضرورى للامة الكبيرة والصغيرة فى وقت واحد

كما هو ضرورى للعائلة والمملكة والبلدة والقرية لكي يعيش الأفراد المنتظمون عيشة مترابطة الأكثاف، متلائمة الجوانب، فيها من الاطمئنان على مصالح الفرد وحقوقه ما يضمن الراحة والسعادة، وفيها من الشعور بأداء الواجبات من جانب السكتة والفرد أيضاً ما يكفل للناس سيراً هادئاً معقولاً، يترك للواحد والمجموع مجالا جيدا ليتم أعماله ويخلص لها ويميل بطبيعته إلى اتقانها، فيسير العالم كالبخرة تمخر في العباب، كاملة العدة مستوفاة وسائل الأمن والسلامة، أليس كذلك؟ ولهذا فالأديان تأمر بالنظام، وطبيعة البشر توحى وضع النظم والقوانين، ولهذا الغاية تأسست الحكومة القديمة والحديثة، وسرت في طريقها فنجحت، وهكذا نحن نشعر بإزاء أنفسنا في جونا الحاضر سواء تحت حماية الحكومة أو تحت رعاية الناموس الدينى أو تحت رقابة الضمير القوى، أو تحت اشراف الاحساس الإنسانى العام، أو فى ظل الخلق الذى نظمه كيان النفس، فتبارك الله أحسن الخالقين، أجل تبارك الله أحسن الخالقين، الأمر على هذه الأفلاك أن تسير منظمة، والموحى إلى هذه الافكار أن تطمح وأن تهدأ وأن تدرك من أنواع العلم والمعرفة ما هى جديرة به وخليفة أن تناله تحت هذا القيد الذهبى المسمى بالنظام.

وإلى هنا هل فرغ حديثنا عن النظام؟ وهل بلغنا المقصد من إزجاء هذا الحديث؟ وهل وقف سياق الخواطر عند هذا الحد؟ لا أظن! أما كيان النظام فهو ترابط أجزاء السير، وأخذ كل جزء منها مكانه بغير مزاحمة أو منافرة أو تشويش، فإن المزاحمة والتنافر فى النظام معناها تعطيل حركة السهولة والنجاح، وتأخير الوصول إلى الغاية رغماً عن الجهود والهمم المبذولة،

إذ هي تصبح في هذه الحالة ضائعة سهلاً لا ينفع معها علاج إلا الرجوع إلى النظام والانتظام ، ومن هنا ينشأ تأثير النظام وفائدته في الأعمال الاجتماعية والفكرية والخلقية سواء بسواء .

قال مفكر : « إذا كان التنازع في أمر الحياة من أكبر العوامل التي تؤثر على عالمي الحيوان والنبات وتنوع في مراتب كل منهما بحكم الطبيعة فلا غرو إذا كان الضعيف يبيد أمام قوة القوى فلا تكون له صورة قائمة . والعالم الإنساني أشد تأثراً بتلك العوامل الطبيعية، إذ يصحبها دائماً عامل الإرادة فيه ، فالنوع القوى من النبات يمتص عصارة الضعيف لحاجة وقتية وإرادة وقتية لا تكاد تميز النافع من الضار ، بخلاف الإنسان فإن إرادته هي العامل القوى والباعث الشديد ، وقلما يفعل الفعل إلا بإرادة تميز له نتائج العمل وتحسنه كل التحسين ، وفي استطاعته أن يوجه كل حركة يتحركها إلى وجهة يريد منها الخير له خاصة ، ولو رأيناه يفعل الخير لغيره فليس ذلك إلا ليحرز منه أضعاف ما أفاده غيره ، وكما يوجد ذلك في الفرد يوجد في القبيلة والشعب والأمة والمملكة لضرورة التناصر بالأقرب فالأقرب .

وحيث كانت الإرادة في الإنسان أقوى العوامل المؤثرة على غيره ، فكما قويت فيه قوى عملها وكانت له أنفع ولطالبه أجدر ، وتقوية هذه الإرادة أمر كسبي يدركه الإنسان بتربية ملكته وتدريب فكره على التصرف في غوامض الأمور ، وهذا هو الداعي لاجتماع العقلاء على أن المعارف والعلوم هي أجل ما يشتغل به صاحب الإرادة ، لأنها أعظم رياضة يتأهلها ، وأحسن تمرين يفيد إدراكه ، فالعلوم لا يتعلمها الإنسان إلا ليكمل عقلاً ، ويتسع فكراً ، ويتعرف في الأمور كما يشاء بدون خطأ ، فلا ريب

بعد ذلك إذا رأينا الأمم التي انتشرت فيها العلوم والمعارف وترتبت فيها أفكار أبنائها تسود وتعظم ، والحقيقة أنها تنازع غيرها البقاء فتفترسها وتحل حياة هذه في تلك الأمة التي غالبتها .

وقال مفكر آخر : « كل يعمل على قدر ما يعلم ، ونتيجة العامل جارية على طبق غايته ، ومتى كانت الغاية بارة حسنت النتيجة ، وكما لا تكون إلا بالعمال فكذلك لا تقوم الأمة إلا بأفرادها العاملين . فليس ثم قوى مجهولة تعمل على رفع الأمم من وهاد الانحطاط ، أو تبلغ بها إلى أوج المعالي ، وإنما هي قوى معلومة محسوسة تنبعث من الافراد ، فتؤثر على الأحوال العمومية وبذلك تظهر الأمة في مظهر مشتق من مظاهرهم ، وصورة مكنونة من صورهم .

هاتان نبذتان لبعض الكتاب في الإصلاح الاجتماعى ، وحالة التقدم المدنى ، اولاهما في المزاخمة في الأعمال ، والثانية في المصلحة العامة للأمم ، وكلاهما متداخلى في حقيقة النظام الانسانى العام وترابط أعمال الحياة ، فليست قوة الإرادة فى الانسان بالامر العيىث ، ولكنها شىء له معناه النظامى وتأثيره المرتب ، وهكذا تعيش الامم والافراد ، وهكذا ينبغى أن تعيش ، تراحم بمنكبها الامم والأفراد الكبيرة ، وتمشى فى داخليتها على نظام وتضامن معقول ومرتب ، لتؤدى واجبها تاماً ، وليسفر عملها عن نجاح وثقة ، وتسعى بقدر جهودها فى أن تعدم طبائع الفساد والعكس والفوضى والآلام .

التعاون العام بين أقطار الجزيرة

صوت الحجاز الحقيقي في المسألة

هذه العزلة الأدبية في القطر الحجازي عن الأقطار الأخرى التي يضمها إطار الجزيرة العربية ، ليست بمؤديته إلى بلوغ مركز اجتماعي وتاريخي واقتصادي خليق بالاحترام المطلوب له كقطر حي يمتاز باعتز بجغرافيته ، ويعتز بماضيه وحاضره ، ويعتز قبل هذه الاعتبارات بكرامته الشخصية . هذا بصرف النظر عن المكانة العربية الإسلامية التي تزيده قوة على قوة في وجود الروابط العديدة مع مختلف شعوب العالم الإسلامي ، أقول إن عزلة الحجاز هذه مع ما هو متمتع به من هذه الاعتبارات ، ليست بمؤديته إلى مكانة فاخرة بين الأقطار العربية ، يساهم بها في تحقيق فكرة الوحدة العربية التي تحفز لها العرب اليوم وينتشون بخمرتها ، ناسين من جرائها كل آلامهم الماضية ، وإذن فالإقدام الفعلي في كل مناسبة على التعاون العملي مع هذه الأقطار هو الدواء المفيد لخروج الحجاز وما يجاوره من عزلته الحاضرة ، وأعني بالتعاون : التعاون الثقافي والسياسي والاقتصادي والادبي ، والسعي للتبادل النافع المعقول مع الأقطار الأخرى المشار إليها في كل هذه الشؤون ، فتبادل التفاهم العام والمصالح بأفرادنا وجماعاتنا وهيئاتنا مع العراق وسوريا واليمن ، ومع مصر أيضاً ، مصر العربية في لغتها ونزعتها وإحساسها ، هو الذي يوصلنا إلى معنوية أكبر وبروز أسمى . ولست أرمي إلى تبادل كذلك التبادل الذي نشأ بين انكلترا وفرنسا في مستهل هذا القرن في التعليم والأطفال ، وسمى بالاتفاق الودادي وشاعت

فيه العاطفة الفرنسية الانكليزية بأسمى أشكالها ، كلا فليس بمنتظر أن يجمع
بي الخيال إلى حد بعيد كهذا في التعاون ، فإنه وإن كان أطفالنا سيستفيدون
من سوريا والعراق مثلا في التعليم والترية لو فرض انهم أرسلوا إلى هناك
لهذه الغاية ، ولكن ماذا يستفيد أطفال هذين القطرين منا فيما لو أرسلوا
إلينا ؟ لا ! ولكني أشير إلى وجوب هذا التعاون في مسائل عامة محدودة
تسمح بها أوضاع البلدان : بلادنا والبلاد التي نريد التعاون معها ، وقوانينها
وطبيعتها في حدود معقولة تفيد الجانبين ، وعلى بلادنا أن تمهد وتتهيأ
لإمكان هذا التعاون ، فتفي بنفسها قبل كل شيء ويلتفت فيها الاهلون —
وأغنيائهم على الأخص — إلى مساعدة التعليم وتشجيع الصحافة والجمعيات
والوسائل الصناعية ليس بالمال فحسب ، ولكن معنويا أيضا بالاشتراك
العقلي بقدر الامكان في أية ناحية تروق لهم من هذه النواحي ، ليسود روح
التعاون أولا في القطر نفسه قبل كل شيء ، كما يسود فيه حب التآلف والوفاق
والإقدام على أعمال النبل والإنسانية التي تمثل مكارم الأخلاق حقيقة
وتربي في الشعب خلق الاهتمام وتدفع بالشعوب الأخرى إلى احترامنا
ومساعدتنا في مسائل الحياة التي نحتاجها ونشرئب إلى نيلها .

إذا فعل الحجاز ونجد هذا وما يمت إليه فإنه سيبنى مستقبلا ويخلق
حياة جديدة تطمح إلى ترقية الازدهان ، وذيوع الصفات النبيلة ، وحب
المشاركة الفردية والاجتماعية في كل نافع ، وتقريب منابع الثروة
والبلهنية والحضارة .

لقد مهد القطر العراقي سبيل هذا التعاون مع الحجاز ونجد ، بأن أرسل
بعثة الكشف العراقية فزارت الحجاز وقامت فيه بجولة صغيرة لم يسمح

لها وقتها بتوسيعها ، وخلد الحجاز ذكرى هذه الزيارة في مجلد أدبي ستهبرزه المطابع قريبا ، وأرسل القطر السوري بعثة أخرى شأنها غير شأن تلك ، ولكن الروح واحد هو روح حب تبادل التعاون الحقيقي بين هذه البلاد وشقيقاتها العربية المندمجة معها في إطار واحد ، وفتح طريق أدبي اجتماعي سياسي عربي قبل أن يكون طريقا قاصرا على سير السيارات فقط على خط سوريا — قريات الملح — تبوك — المدينة — جدة — مكة ، طريق روحي سيتحول مظهره هذا المادى البسيط إلى قوة أدبية معقولة تشد من أزر الرابطة العربية بيننا وبين سوريا لتبادل الاقتصاديات وغيرها ، وقد قابل الحجاز بحكومته وشعبه هذه الخطوة بما تستحق من المقابلة ، وتلقاها الشبان المتعلمون بحفاء ظهر في مظهر علمي ، وعبروا فيه عن أمانهم الكبرى وأمانى العرب وبلاد العرب العظيمة .

هذه الحركات كلها هي في الحقيقة حركات تاريخية معتبرة كلبينات في صرح بناء تعاون عربي عام ، وإذا ما تراصت هذه اللبنيات لبنة فوق أخرى في مناسبات عدة وفي أوقات متقاربة وفكر الساسة والزعماء والمفكرون هنا وهناك وهنالك في خلق أسباب التعاون النافع بين أقطار الجزيرة العربية فإن هذا الصرح سيصبح مشيدا مشيدا ، وستنال البلاد التي تهتم للتعاون فوائده المحققة في أسرع زمن .

ولا نريد التعرض هنا لوضع المثل أو الخطط التفصيلية لإيجاد هذا التعاون الفعلي موسعا ومجديا ، فإن هذا علاوة على أنه سبق أهوج للحوادث فإنه شأن ولاية الأمور وهم به أدري ، وله أفطن ، وعليه أحرص ، وما شأننا غير البحث والعرض بعد التفكير المستقيم المخلص خدمة لبلادنا وحكومتنا وللعرب والشرق .

ميدان الشباب

« الشباب » !

هذا هو اسم هذه المجموعة ، او الرسالة أو الصحيفة ، أو ما شئت فسمها ، فإنما هي كل ذلك في صميمه وحيثيته ، فهي وعاء لحكمة الأفكار الناشئة المتطلعة لعين الأمل الى ما في هذه الحياة ، من متع فكرية وغايات اجتماعية ، ومذاهب أدبية ، وثقافة علمية ، حسب ما يتطلبه هذا الوسط وحسب ما يوحى به هذا الوسط ايضا ، وحسب ما يرى هذا الشباب الحى من واجب يقتضيه منه مجد البلاد ومجد الفكر ، وهو حر كل الحرية فيما يرى ، اذن هذا ميدان تتسابق فيه جياذ الأقلام يهزمها عزم الشباب ، ويحدوها حادى الأمل لتقطع اشواطا وأشواطاً إن تعثرت في الأول منها فمضمون لها ثبات الخطى في الاواسط والآخر ، بحكم المراس والتمرين وبحكم طبيعة التجربة ، وان الحياة بأجمعها أو بخذافيرها لى سلسلة متواصلة الحلقات من التجارب والتمرن والمراس .

إذن فليحي الشباب !

نعم ليحي الشباب وليمض وليتقدم وليبن ، وليعـلم أنه ناجح ناجح ، ومنتصر ومنتصر برغم كل شيء ! ، فلن يقف الفشل في طريقه ، ولن تعرف الهزيمة سبيلها الى مجهوداته ، وسوف يخشى الفشل والهزيمة نفساهما على نفسيهما من وقدة هذا الشباب العزوم الناجح المنتصر .

نحن الشباب العاقل ! نحن الشباب الفاضل ! نحن الشباب المحق ! هذه
الأنفاس وأمثالها هي الوحي السماوي الملهم الذي يجب ان يعتنقه الشبان
الشادون في الأدب ، وأن يؤمنوا به ايمانهم بالله ، كما اعتنقناه نحن الذين
جاورنا مرحلة الشدو الأولى في حياة الفكر والأدب الى ثقافة ضمنت لنا
الاحترام ولا زلنا نعتنقه ونؤمن به حتى نخلع عن انفسنا ربقة الشباب ،
والذي كان يعتنقه بالامس هؤلاء الكهول المحنكون وغير المحنكين ، فهو
إذن حق طبيعي واجب لكل شاب .

هذا ميدان الشباب العاقل فلتتسابق فيه جياده ، كما تأمرها الحياة ،
ولتتحرر في سيرها كل ما في الطريق من آثار الماضي ، ولتكن بانية في سلوكها
إلى الغايات ، لا هادمة ، فإن البناء الممرد يهدم لطبيعة البناء المشوس المتقاصر ،
ولا يلبث أن يلاشيه أو يتركه في الطريق لا قيمة له ولا حفل به .

هذا ميدان الشباب ، فليمش فيه بحكمة المخلص ، وتثبت البصر ، ورزاقه
الأديب العامل ، واستقامة الوطني المكين ، وليحصر جهوده في النافع الجليل
المنتج بقدر مستطاعه ، ويستنكب عثرات المسير حسب ما يخوله إدراكه .

هذا ميدان الشباب ، فليكن له فيه مبدأ صحيح ، ونظر مستقيم ، وحب
لكل ما يربطه بحياته الحاضرة ، ودفاع عن كيانه ودينه وأخته وأمه
وحكومته ، ولتجرسه عناية الله .

أدب الافلاس

فقر الدم في مجموعة الانسان العصبية في علم الصحة ، يشبهه فقر الفكر في أدمغة الكتّاب في علم الأدب . فكأين من كاتب يمثل في عالم التحرير دور صفاف الحروف فحسب في عالم الطباعة ، يهرّك باديء ذي بدء بكلمات طليقة منتقاة من « نجمة الرائد » أو « أدب الكتّاب » أو « البيان والتبيين » وقد أكون أبعدت النجعة واكبرت قليلا من شأن هؤلاء المضعفين ، وقد يكونون متهمين بالاطلاع على هذه الكتب ، وانما يكون من أجل مواردهم « جواهر الادب » وما اليه من كتاب مظموس لا يحمل الا صورة مكررة غثة من آداب مضت عفت عليها الحياة كما عفت منتجات القرون الحديثة على كثير من مخلفات القرون الماضية فيغيرون اغارة الغزاة ملتهمين ما يقع بين ايديهم سلبا باردا ثم يحقنون به رءوسا خالية من الفكر ، وعندما يتشكل ذلك السيلال رديئا كان أوجيدا بشكل إنائه الجديد يخرجونه مرة اخرى بصورة غير صورته . وهل في الناس بعد من ناقلين فيحللون ذلك الأدب المعاد ، او هل فيهم من باحثين عما تخفيه تلك البضائع المزجاة ، فيصرفون ما فيها من عناصر الكساد ؟ كلا إن الناس بله لا يفهمون ، وذمة أبولون اوسع مما في مقدور أولئك الادباء المفاسين ، وجبل الأولمب لا يضمن بالخلود على كل غي يحسن سرقة الافكار وتصنيف الجمل وانتقاء الكلمات فما عليه سوى الإغارة على ما تنتج العقول الفياضة واتحاله ثم ابرازه للناس بلون جدير .

إن الغباء مصيبة مركبة فيما أرى، فبينما يتلصك الغبي في جحيمه الذهبي
مستسلماً لتسائج فعل الطبيعة معه، تراه يبصر أمامه تلك الجيوش المزدحمة
من الآدميين أغبياء جهالاً لا يملكون تصارييف الفهوم، فما يتهجم عليه
من عمل مخجل أو تصرف قوامه الضعف فهو مدفون لا يرى تحت أطباق
كشيفة من غباء الآخرين !!

أولئك هم المفلسون في عالم الأدب، أدباء أقفرت رؤوسهم من أفكار
الحياة القوية السيارة، فأخذوا يجترونها كما تجتر السائمة ثم هم يحسبون
في طبقة المفكرين أو الفنانين وما اغبنها صفقة تخسرهما سمعة الحياة الانسانية
إن يسمى هذا القطيع المجتر كتاباً أو مفكرين، وهل لم يخطر لك وقتاً أيها
القارئ الكريم أن الثثرة في الكتابة نوع من الافلاس في الفكر والشعور؟
ولم لا؟ وهي أسلوب مرض يجنح له الملتشى الفقير الدماغ وقد أعوزته
الأفكار فعلاً صفحات من الجمل تتكون من اسفاف بارد إلى نظريات عامية
لا يضيق بمثلها فكر الخلاق والجزار وسائق الاوتوموبيل وماسح الأحذية.
تبدو لك في مظهر جامد ولكن لهذا المظهر بما فيه من جمود لألاؤه الخاص
في أسلوب الادب « المفرح » ومكانته في عالم المسرات الأدبية، لا أقول
من جانب الهزء به فقط، ولكنه يمت أحياناً إلى السهولة بنسب وهو
في صورته الاولى أشبه بالارواح الراقصة في مسود الليل، أو على مسرح
التثيل، إنها مضحكة وخفيفة معا، ولكن يرتفع الخوف منها عند فحصها
بدقة، وعندما نعلم أنها خيالات جوفاء فيبقى عنصر الإضحاك لا يلاشيه
الفحص. ونحن في طورنا الجديد من الأدب الحى لا نحتاج كثيراً إلى رقص
الاخيلة في الظلام وإنما الحاجة إلى الجد بأوسع معانيه وإلى العبوسة الفلسفية

في تصفية ذهب الحقائق واستخراجها من مناجمها ، ولا تقوم هذه التصفية والاستخراج إلا على قلم داه قدير ، يتسابق في هدوه واتزان في شرح الفكرة وتحليلها بخلق رصين ، وتشريح فلسفي واضح متسق يتغلغل في أعماق الموضوع فنيا ، فإذا هو صورة هندسية للموضوع رائعة الجمال ، وهي في روعتها لا تنتسب لشيء أساسي سوى الغبط والاتقان .

عامية الحجاز ووثوق صلتها بالفصحى

كنت منذ أيام وصديقي الفاضل الجليل « طلعت وفا » نطالع مقالا في المجلد الرابع والسبعين لمجلة المقتطف التي أحتفظ بعدة مجلدات منها في مكتبي كأثنى مراجعي العلمية ، وكان موضوع المقال حديثا ليدي « درمن هاى » المرأة الانكليزية المقدمة التي هى أولى عبارات المحيط الاتلانتيكى طيرانا من أوربا إلى أمريكا ، والمرأة الوحيدة — أو الوحدة كما يقول المقتطف — بين ركاب المنطاد « غراف زبلين » الالماني تصف فيه رحلتها من الوجهة النسائية ^(١) فاستلقت نظرنا مادعا إلى البحث فى معاجم اللغة ، الغربية ، وبيدنا أنا أقلب صفحات المنجد ، للأب موسى شيوخو اليسوعى ، إذ وقعت عيناي عرضا على كلمة « كيان » وهى كلمة ليس لها علاقة بموضوعنا فى البحث ولكن بحثنا فى المنجد عما يتعلق بمقال درمندهاى كان قد تم ، وكانت كلمت « كيان » هذه العارضة أوحى لى فكرة جديدة عن اللغة العامية فى بلاد الحجاز وصلتها بالعربية الفصحى ، فهذه اللفظة يستعملها العامة عندنا بمعنى « مفلس » فوجدت أنها فى التعبير تؤدى معنى « فاسد » وليس الافلاس والفساد فى الحقيقة إلا من عنصر واحد ، هى النكسة والتدهور ، فبين اللفظتين عموم وخصوص يسوغ استعمال إحداهما فى مكان الاخرى ، أو هنا على الأقل رابطة الاستعارة السائغة تحكم الصلة بينهما ، ولم أكد أقع على هذا الاكتشاف البسيط حتى كدت لا أتمالك نفسى من المسرة ، وأغراني هذا الاكتشاف بالمضى فى هذا السبيل للعثور على كلمة أخرى

(١) راجع باب شؤون المرأة وتدير المنزل فى مقتطف فبراير سنة ١٩٢٩ مجلد ٧٤ ص ٢١٢

تدل على استيثاق الصلة بين لغتنا العامية الحجازية ولغتنا العربية الصحيحة ، مما عساه أن يقرب المسافة بينهما وان يدل في نفس الوقت على أن اللهجة العامية الحجازية لا يبعد أن تكون أصح لهجات الاقطار العربية العامية الاخرى كلهجات مصر والعراق وسوريا واليمن العامية مثلاً ، وعسى أن تكون اللهجة الحجازية هي زعيمة هاته اللهجات كما كانت لهجة قريش في الماضي زعيمة لهجات العرب قاطبة ، وان تكون هذه الزعامة المجهولة دليلاً زعامة صريحة يتمخض عنها المستقبل القريب لا تقتصر فيه على اللغة فحسب ولكنها تتعدها إلى الثقافة العامة والحضارة والسياسة ، ومن ثم يكون هذا الأمل البارق دليلاً صارخاً على خلود اللهجة الحجازية فيما بعد ، ومن يدري لعلها تكون بعد تعديل بسيط لهجة الكتابة العربية كما حدث ذلك في لغات أوربا الحاضرة التي كانت قبل قرنين لهجات عامية محلية يوم كانت اللاتينية واليونانية هما اللغتان الرسميتان للكتابة العلمية كانت أو أدبية ، فما هي إلا ان تجرأ أدباء الانكليز والفرنسيين والالمان فنظموا الشعر بالانكليزية والافرنسية والالمانية -- وكانت لهجات عامية حينذاك -- وكتبوا بها المواضيع والابحاث العلمية والأدبية وتداولوا ذلك الامر وأوغلوا في الاقدام عليه حتى أصبحت هذه اللغات لغات بليغة راقية تؤلف بها المؤلفات الضاربة في كل ميدان ، وها نحن أولاء نشاهدها اليوم بأعيننا أرقى لغات الكتابة والتأليف في العالم .

هكذا تترقى اللغات واللهجات ، وهكذا تنهض بنهوض أهلها الذين يلبسونها حياة فزاة متدفقة ، وهكذا يتحقق ناموس التحول والتطور ، ويتم قانون النشوء والارتقاء .

فإني أرى أن اللغة العربية للمستقبل لن تعود القهقري إلى عصور
أمرى القيس والنابعة وعبد الحميد ، ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم ، ولكنها
ستتلقح كثيرا وبصورة هائلة بلقاح من هذه اللهجات العامية الراكزة .

وإذا كانت إحدى هذه اللهجات العامية — كالعامية الحجازية — هي
نفسها ملقحة من العربية الصحيحة ، فيا لربح الصفقة حيث تكون المسافة
قريبة جدا وعملية التلقيح الطبيعية التي ستجرى بنفسها سهلة المأخذ ، وأية
لهجة من هذه اللهجات يأنس فيها الكتاب روح الشبه والقرب من العربية
الصحيحة فإنها هي التي ستسود غيرها من لهجات العرب .

هذا حق صريح ، والحق أقول اني لم أكد أتصوره وأتصور معه هذه
العظمة التي سيحققها المستقبل لعامية الحجاز حتى انتشيت بخمرة سرت
نشوتها في مفاصلي .

وكشفت صديقي طلعت بهذا الأمر ، وأنبأته عن عزمي على التنقيب
والقيد ، فشجعني هو بدوره وصدق علي ما قلته له وأنبأني أن اللهجة
الحجازية تضم بين مفرداتها كثيرا من الكلمات الصحيحة ، وكان هذا
إحساسى من زمن ، ولكنى لم أنهض للكتابة إلا اليوم على أثر ذلك
الاكتشاف العرضي ، الذى أعقبه اكتشاف آخر أكبر منه ، عرفت منه
أن العامية الحجازية تحمل — بحق — جانبا كبيرا من الالفاظ الصحيحة ،
وهأنذا أسرد على القراء ما حققته منها كنموذج على صحة هذا الإدعاء :

١ - « الخربشة » لفظة يستعملها الحجازيون بمعنى الخدش : خدش
الإنسان جلد آخر بأظافره وأحدث سجات فيه ، أو خدش الهر إنسانا ،

ويشتقون منها فعل « خربش » بهذا المعنى ، وقد جاء في اللغة العربية أن الخربشة هي إفساد الكتاب أو العمل ، فالمؤدى واحد بلا ريب وإن خدش الجلد بالأظافر هو إفساد له وتشويهه كإفساد الكتاب أو العمل .

٢ - « خش - يخش » عامية حجازية بمعنى دخل يدخل ، وهى بهذا المعنى والاستعمال نفسه فى العربية سواء بسواء .

٣ - « سيب - يسيب » الشئ يستعمل بمعنى تركه وأهمله ، وهى كذلك فى الفصحى سواء بسواء .

٤ - « الشاطر » عندهم بمعنى الماهر القدير ، والناجح فى عمله ، ومصدره « الشطارة » وفعله تشطر ، وقد صح فى اللغة أن معنى الشاطر : المتصف بالدهاء ، أو بالخبث ، ولكن فعله « شطر يشطر » من باب حسن وكرم ، أما مصدره فهى الشطارة عينا بعين كما فى اللهجة الحجازية .

٥ - « عجر فلان فلانا يعجره عجرا » بمعنى ضربه - حجازية صرقة ، وفى اللغة الفصحى ، عجر فلان فلانا بالعصا ، يعجره عجرا : ضربه فانتفخ موضع الضرب وعجر عنقه بمعنى ثناها ، فالعجر الحجازى إذن هو العجر العربى الصحيح ، ولكن اللهجة الحجازية تتوسع فى عدم تقيده بثنى العنق أو لزوم انتفاخ موضع الضرب ، ولكنها تضمن الكلمة معنى الغلبة والقهر - فى الضرب طبعاً .

٦ - فزر الباب أو الدولاب أو الصندوق ، يفزره ، فزرا » بمعنى فصل أحد مصرعيه أو غطاءه عن المصراع الآخر ، أو عن الجانب غير الغطاءى منه ، والكلمة فى العربية بهذا التصريف تماماً من ضرب بمعنى فصل الشئ عن الشئ وبمعنى كسره وفسخه .

٧ - « قَرِفَ فلان يقرف من باب علم ، بمعنى غشيت نفسه أو اشمأزت والقرف مصدر قرف ويأتى بمعنى التقريف ، من قرف فلان فلانا « مشددة » بمعنى أغشى له نفسه بذكر حديث مغث أو وصف طعام ردىء مثلا ، وفي العربية الصحيحة تأتى قرف فلان فلانا بكذا بمعنى عابه أو اتهمه به والمعنيان جد متقاربين أو متماثلين ، وتأتى أقرف بمعنى ذكر بالسوء .

٨ - « كحيان » و « مكححين » بمعنى مفلس أو فقير ، ولا تصريف لها في اللهجة العامية فلا يشتق منها فعل ، وهى في اللغة بمعنى فاسد من كحن يكحن من باب ضرب بمعنى فسد .

٩ - « المركن » اناء من خفار أو من خشب يستعمل لئزرع فيه بعض الزهور البيتية ، ويستعمل في نقل الطين أيضا لبناء الدور ، وكان يستعمل منذ ربع قرن في غسل الملابس ، هذا استعماله العامى الحجازى وهو في الفصحى اجانة « أى إناء » تغسل فيها الملابس وغيرها .

١٠ - « ندر » تستعمل العامة هذه الكلمة بمعنى خرج الرجل ، وهم يقصدون الخروج العام ، وهى في العربية بمعنى الخروج أيضا ، ولكنه خروج الرجل عن قومه ، وبمعنى القلة والندور ، فعلى المعنى الأول ستجد الاستعمال العامى والصحيح وليس من فارق بينهما سوى العموم والخصوص وهو سائغ .

١١ - « وشوش » من ضرب دحرج بمعنى همس الكلام فى العامى والفصحى سواء بسواء .

١٢ - « وى » كلمة تعجب يستعملها الناس خاصة بصورة اطرادية شائعة جدا ، وهى فى الفصحى اسم فعل مضارع للتكلم بمعنى أتعجب .

هذه نماذج من ألفاظ تستعمل في اللهجة العامية الحجازية وتندمج فيها اندماجا طبيعيا بلا كلفة ، لأنها من مفرداتها الكثيرة التي كم فيها من أمثال هذه الألفاظ الصحيحة التي لا يسعنا أن نستقصيها ، وإنما حسبنا التمثيل هنا لندل به على مكانة هذه اللهجة من القرب والاتصال بالعربية الفصحى ، فعسى أن يفكر الكتاب و الادباء في أسباب ونتائج هذا الاتصال الوثيق وأن يعيروهم من التفكير قسطا يتجلى في عدة مظاهر كالاكثر من استعمال هذه الكلمات في الكتابة تمهيدا لرواج اللهجة الحجازية وتقريبها من اللغة الصحيحة أو تقريب هذه منها ، وكالبحث والاستقراء عن أمثال هذه الالفاظ في اللهجة العامية وضبطها وجمعها في كتاب ، وكالبحث والكتابة مرة بعد مرة في هذا الموضوع الجليل فإن له خطره العلمي والاجتماعي كما أسلفنا الكلام على ذلك .

وفي هذا العمل ولا ريب ضرب من الوطنية الصحيحة التي تؤدي إلى رفع مستوى القطر العزيز .

الحاق

كتب هذا الفصل قبل بضع عشرة سنة من تاريخ طبعه في هذا الكتاب وها نحن الآن نرى صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار يواصل بحثه في هذه الناحية نفسها فيخرج بمحصول كبير من هذه الالفاظ والتعابير ولعله يحاول جمعها في كتاب لا يخدم به اللغة العربية وحدها ، ولكنه يخدم به تاريخ هذه البلاد اللغوى .

في السبيل^(١)

الآن وقد أذن حاجب الزمن أن تظهر في هذه البلاد صحيفة تعبر عن مقاصد أبنائها ووجهة تفكيرهم وشدة تعلقهم بحياة الأعمال والمشاريع النافعة، وهي الناحية البارزة في حياة الناس فيما وراء هذا العالم الفطري فإننا نتقدم عاملين بعون الله، معتبطين بمجال العمل، لاهجين في هذا الموضوع بثنائنا على صاحب الجلالة الذي شجع مشروع الجريدة مادياً وأدبياً، غير ناسين همة من عضدوها بإقبال له سعته ونفاذه، وقد كان عز منا نشر أسماء حضراتهم قياماً بالواجب، غير أنهم أبوا علينا ذلك وسوف لانهمل الفرصة عند سنوحها في تحقيق هذه العزيمة حرصاً منا على واجب كبير مستيقنين أن ليس هذا العمل فقط هو الذي يحفز كل غيور من النشيطين ومحبي الإصلاح إلى إبرازه في حيز الوجود، وإنما الغاية من وراء ذلك هي بعث مناحي النفس العاملة في إيقاظ الصناعة وأبواب العمل الحر في هذه البلاد المقدسة، وغير قليل أن تشتد هذه الروح وتنتشر في الطبقات، وغير نزر أن نساق قانون الله في خليقته، فنفكر فيما يعود علينا وعلى بلادنا بالنفع المقصود في هدوء ومثابة وحسن قصد، ساعين إلى ما يمكن أن يعلى شأننا ويبنى مركزاً عملياً، ويعود بقسط وافر من النفوذ الأدبي وسمو المنزلة بعد أن كانت سحابة سوداء من الصد والحرمان تجثم على صدر أمثال هذه المشاريع في الزمن السابق، فأصبحنا في عهد سمح لا يضرب بمثل ذلك وقد فعل!

وكما لو تم بقاء البلاد على خمود نزعتها نحو العمل والاهتمام بالمعرفة وترويج الآداب وبعث حضارة الأذهان بقدر المستطاع تسوء حالتها إلى الأبد ، وتنفذ منها مادة الحياة والإحساس بالواجب ، كذلك تنتظر من تقدمها إلى نشدان السكال نتيجة طيبة هي جريان دم الأمل في أعصابها وتساميتها إلى حيوية مرجوة ترهف إحساسها بواجبها وتقوى عزمها في استكشاف الصالح من سبل العمل الشريف .

ولن يعدم عامل هذه غايته أن يجد طريق النجاح معبدة مفتوحة أبوابها فقيما قال شاعر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعد الدهر

وحرى بالإنسان أن يتعلم الثبات وشق الطرق ممن كان قبله من أساطين الرجال الذين قدموا واجبه الساطع في نواحي الحياة ، إما عن طريق الفكر أو العمل أو أية طريق كانت ، وفي أية دائرة أتيح للعامل الصادق أن يجوس خلالها حيث يكون المدار فيها على قوة الانتاج وجمال الخطة وجمال المقصود ، فكلنا يشعر ويعتقد أن القصد الجليل والغاية الجميلة والنتائج القوي في عالم الأعمال أشياء أصبحت اليوم ضرورية ومقدسة . فكم هو هائل ومحترم أن يحس المرء بوضوح زائد فرق ما بين الجمال والقبح ، وما بين القوة والضعف ، وما بين الجلال والحقارة ، ثم بعد أن تبدو أمام عينه هذه الروعة الممتعة من المقارنة والفهم يختار لنفسه - إذا وفقه الله - أصلح السبيل وأقومها بقدر اجتهاده ، ولن يفشل ذو جهد مستقيم .

هكذا أوحى إلى الناس سنن الحياة .

وحول هذه الفلسفة دارت بتعاليم المصلحين .

وفى مثل هذه الحكمة يقول القرآن الكريم : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » و « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « وعلى الله قصد السبيل » « لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجاً » وما إلى هذه البينات الناصعة ليس فى بلاغة تعبيرها فقط، ولكنها فى عالم السير الحيوى قبل ذاك وبعد ذاك .

وبعد فهذه سبيل طرقها العابرون قبلنا من حملة الأقلام وقساطرة العلم والأدب وهنادسة الفكر الرحيب والعاملين على إيقاظ الشعور وصقله عربا كانوا أم أعجماء من كل مزود فى الحياة بأقوى أسلحة الحياة، وكل مسوم مزيال يملك عليه لبه حبه الفائدة والرفعة لبنى قومه ، فإن نحن غامرنا أيها القارئون فى هذا الشرف المروم ، وقنعنا - والتعبير للمتنبى - بما دون النجوم ، فإنما هى همة يدعمها الايمان بالمبدأ القويم ، وعزيمة يملئها الإحساس بكرامة النفس المطمئنة إلى قانون الدنيا الحكيم .

ولكن المتنبى يأبى على المغامر أن يقنع بما دون النجوم وطبيعة النفس الانسانية تهوى السمو إلى ما فوق مستوى الطاقة البشرية ، وتأبى طبيعة الكون ومسير الظروف ذلك الطموح والبروز إلا لأفراد كان خلق المغامرة أول مواد الغذاء عندهم، فهم فى معزل عن الحياة إذا صدفوا عن طريقه وفى ذبول عتيد لو غادرهم قطعة من الزمن .

وقد لكة الأمر عندنا فى هذا الموضوع أن الحياة ترغبم الأحياء على الحركة والعمل، والسير والتقدم وإننا فى السبيل، وإننا إن شاء الله لمتقدمون .

اعملوا للبلاد

أيها الرؤساء !

اعملوا لبلادكم كما تعمل كل الأمم في داخل بلادها وخارجها أعمالاً مختلفة الألوان ولكنها متحدة الغاية. فالعمل السياسي، والعمل الصناعي، والعمل العلمي والعمل الأدبي، كلها في الأمم الشاعرة بنفسياتها خطوط مستقيمة تؤدي إلى نقطة معينة قريبة الوصول، فالعالم هناك لا يقول عن رجال السياسة إنهم من أهل الدنيا ونحن من ذوى الآخرة، والسياسي لا يقول عن علماء الدين إنهم خلقوا للمساجد والكراسي فلا يصلحون لأن يفكروا في مصالح الأمة، والأديب كاتبها كان أو شاعرها لا يسمح للسياسي أن يندفع في قيادة الأمة اندفاعاً فردياً فوضوئها الخطة قد يكون سوء الإنتاج، ولا يدع العالم يتمتع بهيجته اللذيذة في ثنايا الفرش الوثير، فرش الاستئمان الروحية واللهو عن يقظة الحياة العامة، ولكنه يصلي الجانبين ناراً حامية من النقد تبركن الأفراد من كل طبقات الأمة فيحسون أنهم خلقوا ليفهموا حياة محيطهم من شتى جوانبها فهماً دقيقاً حراً يرفع عن الأعين المشغلة بالانعاس كثافة الأجفان المطبقة، ويبرز الأعضاء الرئيسية الفاترة للقيام بحركة الحياة والعمل قياماً إن فقدته الأمة في مجموعها كان نصيبها الصفع متواليها على الأقفاء من كل ذي مرة يحس ويعقل ويدري أن القصور والإهمال إنما خلقا للصبيان اللاعبين لا للرجال العاملين. ستقولون وماذا نعمل؟ وهل نحن مهملون

أو مقصرون ، والجو صعب سهل بيد أنى لا أريد الإفصاح بصراحة عن نصفه الأخير أما نصفه الأول فأستطيع حصره بالجملة التالية :

١ - اعملوا لتقوية الكيان العربى بين الحجاز ونجد ، فما من بد اليوم للأمتين أن تكونا أمة واحدة متنبهة تحس فى طبعها أنها مزيج قوى فعال السريان وجهته واحدة طالما سياسته واحدة وزعيمه واحد قوى الإرادة متين الخلق رصين العقيدة ، بهذه الوحدة يسحق فى سبيلها مطامع المفكرين فهل من المعقول أن يشتغل وحده ذلك الفرد المؤمن بمبدئه من حيث لا يجد من رؤساء الأمة وذوى الشخصيات البارزة فى مجموعها من يضافره على هذا رأى أو من يؤمن بهذه العقيدة إيماناً متيناً يستشفه الناظر من وراء الأعمال المحكّمة ، ليس هذا معقولاً أيها الرؤساء الحجازيون الكرام لكن المعقول الذى يضمن لكم قبل كل أحد مراكز سامية فى الحياة ، مراكز صحيحة تبنى على الأكباد والقلوب هو اعتناق هذا المبدأ ، مبدأ توحيد أنواع العنصر العربى ، ثم صلوا إلى ذلك من أى طريق أردتم من طريق الدين ، من طريق السياسة ، من طريق التجارة ، من طريق التعليم ، من طريق الصحافة ، من طريق المصالح ، من طريق الآداب فستصلون لا بد ...

٢ - اعرفوا قيمة الوطنى كما تعرفها الأمم ، وليخدم الكبير الصغير حتى يعرف الصغير مكانة الكبير ، وأشعروا قلوبكم ضرورة الارتباط العائلى الوثيق بين أفراد الوطن الواحد ، وضموا قلوباً إلى قلب لتضم إلى القلوب قلوب ثم تكون القلوب قلوباً واحداً ينبض بعقيدة واحدة هى عقيدة النفع العام والمصلحة المشتركة ، وبهذا ستبنون بناء شامخاً فى الوطنية لا يعجزكم

بعد أن تضخموه ، وما هو بمستحيل على عزم الرجال الذين يفهمون الحياة ويحبون العمل المنتج في ظل العطف الشامل والوحدة الصحيحة ، والتفاهم بين الأفراد والحرية للمجموع وضمان الحقوق للجميع .

٣- وجهوا النظر الأقصى إلى التعليم ، وأوجدوا تعليمها منظما ساميا في الحجاز يضمن سد حاجات البلاد بكفاءة أبناءها ، فالأمة لم تبق إلى الآن في جحيمها الذهني الا لفوضى التعليم أو فقدانه من البلاد ، وليس بالإسراف أن تصرف آلاف الجنيهات في هذا السبيل لتصحيح الفهم والقضاء على ما يهدد الناشئة من خطر التعليم المقصر .

الجامعة الإسلامية

حافظنا إلى هذا البحث هو واجبنا نحو الجامعة الإسلامية الكبرى ،
والرابطة التي ينضوى تحت لوائها من سماهم الله بالمسلمين واختار لهم الانحياز
إلى هذه الملة السمحاء والحنيفية البيضاء .

مسلمو العالم اليوم منحصرون في الجانب الغربي من قارة آسيا ، والجانب
الشمالي من قارة أفريقيا تقريبا ، ففي الأول عرب المشرق : سكان الجزيرة
العربية « الحجاز ونجد وعسير واليمن وسوريا والعراق وما بين النهرين »
وأترك الأناضول ، والبهاريون والتركستاني ، وفي الثاني عرب المغرب :
سكان تونس والجزائر ومراكش ، والمصريون والسودانيون والبرابرة ،
ومن غير هذين الجانبين مسلمو الهند وجاوى والصين وتركيا أوربا
ويتراوح عدد هذه الكتلة الإسلامية المباركة ما بين الشلثة والمائتين
والخمس مئونا كلهم باسان واحد ينطقون كلمة الشهادتين ويولون وجوههم
شطر الكعبة المقدسة خمس مرات ما بين كل مشرق فجر ومغرب نجم ،
ويؤمنون البيت الحرام خاشعين في موسم خاص تناح لهم فيه فرصة الحج
إلى ذلك البيت العتيق فيجتمعون في موقف يخفض فيه الطرف ويخضع له
النعل ويحسر فيه عن الرأس وتدنس فيه الفروق الجنسية والاجتماعية
خضوعا لأمر الخالق العظيم ، واتباعا لتعاليم الرسول الكريم ، ويدين هذا
الجمع الغفير بعبيدة واحدة هي توحيد الله تعالى ، الإله المبدع الاعظم الذي
تعنوا له الجباه وترفع إليه العقول رهبا ورغبا في غير ما دنس يمسخ طهارة

القلب أورية تأكل من راسخ الإيمان العميق ، أولئك هم المسلمون القائمون
بواجبات الشريعة السمحاء التي سطع ضياؤها قبل الف وثلثمائة وستين سنة
على يد ذلك المبعوث محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه
وسلم في بقعة من الارض ما زال تشعر بقداسها وتقصدتها شتى العناصر
معطية إياها من طواعية القلوب واستيفاز الأنفس ، ما لا ينال أضال
قسط منه بسوى ذلك الخافز الالهى الشائع في كل نفس تعتنق الإسلام ، والسائل
على كل لسان يردد كلمة الإقرار ، والمائل في كل جبهة تسجد للخالق جل
قدرته وتعالى حكمته أولئك هم المسلمون المتحدون في المنزع والهوية لا
تعبث بعقيدتهم الا هواء ولا تجرؤ على النيل من متانتها ورسوخها وسأوس
التبشير برغم ما يبذل دعائه من جهود عنيفة منظمة يشد أزرها المال
المكسب المبثوث في هذه السبيل بلا حساب .

وليس السر في هذا الاتحاد وذلك الثبات سوى تلك البذرة الإسلامية
المعنوية التي بذرتها يد الله في مختلف هاتيك القلوب وتعهدها بالانماء
والارواء عن طريق الكتاب المقدس والحديث المحمدى المملوء بخير الامم
ومباعت نهضاتها الحقيقية ، القائمة على أساس مكين من حياة الوجدان والفكر
بما لو تعمق فيه الدارسون - وقد فعلوا - لطأطأوا له الرؤوس عرفانا بصفاء
جوهره ، وسمو معدنه ، وبعد صرخته في أفق الفضيلة الثابتة والحق الصريح .

هذا هو جو الإسلام الذى ما يستنشق فيه بشرى نسمة من نسيمات السعادة
والمعرفة وراحة الضمير إلا وأسرع إلى الإيمان بعظمته وشاع في جوانب
نفسه شعور صادق بما لتعاليم الإسلام من ميزات متفوقة . وعلى هذا
الاساس ، وفي هذا الأفق الفسيح تقوم وحدة المسلمين وارتباطهم الفكرى

والروحي ويتضح تماما معنى الوحدة الإسلامية التي نقصد إياها في بحثنا
محددin ذلك البحث بهذا الحد الآتي :

- الوحدة الروحية ، والوحدة السياسية .

وليس هذا الحد إلا لأن المفكرين في الشرق وأهمهم من المسلمين
يرقبون الامم الإسلامية بمرقب صادق النظرة فيرون فيهم أحسن اداة
تعمل للجامعة العامة ، فهم يحللون قبل البحث ماهية الوحدة التي يجب أن
يتصورها كل أفراد المسلمين ، فمن هؤلاء المفكرين من يرى أن الاتحاد بين
الامم الإسلامية إنما يكون روحيا وخلقيا فحسب في الوقت الحاضر، إذ
ليس في استطاع تلك الامم اليوم أن تكون وحدة سياسية اجتماعية لتباين
أنظمة الحكم في مختلف بلدان العالم الإسلامي ، ومنهم من يرى ضرورة أن
يتناسى كل عنصر من العناصر الإسلامية عصبية الجنسية وتقاليد المحيط
السياسية في سبيل تكوين وحدة مادية اجتماعية عامة تبذل في نيلها كل أمة
ما في مقدورها من التضحيات البريئة الهادئة ، وتعمل بحق لإيجاد الكتلة
السياسية الكبرى المتماسكة تماسكا واضحا للعيان .

أما ما هو جوهر الوحدة الإسلامية الروحية فجوابه في المثل الأعلى الذي
يصوره الدين الإسلامي في شخص المسلم الكامل الإسلام في آدابه ومعاملاته
المنطبقة انطباقا دقيقا صحيحا على الأصول المراقبة في واجبات المسلمين
بعضهم نحو بعض بحسب ما هو منبث في تعاليم الإسلام التي يبصر المبصر
فيها ما يدعو إلى تجاذب العناصر المختلفة وتلاؤمها عن طريق التفاهم
والتعاون وربط ما بين تلك النزعات العديدة المتباينة مع التسامح في نزعات

الأصول العنصرية التي تمت إليها بصلة قوية مشتملة لا يؤثر فيها إلا مثل هذه التعاليم . جاء في القرآن الحكيم :

١ - ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

٢ - وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله .

٣ - اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم .

٤ - وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له .

٥ - ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم .

٦ - تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

٧ - والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب .

٨ - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .

٩ - وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون .

١٠ - وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

١١ - ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.

١٢ - واثمروا بينكم بمعروف.

وجاء في الحديث الشريف :

١ - كونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله .

٢ - انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فإن كان ظالما رددته عن ظلمه «الحديث»

٣ - أيها الناس كل-كم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي

إلا بالتقوى .

٤ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يظلم جاره «الحديث»

٥ - المستشار مؤتمن .

٦ - خير الناس أنفعهم للناس .

ونحن لا نستقصي ولكن نذكر ما يخطر على البال ونؤجل البحث

المستفيض إلى موضوع مدروس نكتبه إن شاء الله عند سماح الأوقات لنا

بالاستفاضة الكافية .

خلاصة ما في هذه التعاليم والمبادئ وخلافها أن الدين الإسلامي قد

حمل إلى الناس رسالة الفكر السامي ، فدعا إلى الاتجاه نحو نزعة مشتركة هي

توحيد المعبود قبل كل شيء ثم ما تستلهم الروح المعذبة ، بعد ، من ثمرات

هذا التوحيد الحافل بزاهر المعاني ومنابع الأخلاق الرحيمة ، وفي مقدمتها

الإخاء العام ، والتفاهم ، والمعاملة الحسنة لكل فرد من أفراد الجنس

الآدمي ، ومساعدة المنكوب العاجز عن مكافحة أخطار الحياة ، وتطهير النفوس من أقدار الأوبئة التي تقسو على جوهر الروح فتبعده عن فهم مقاصد الله أيما ابتعاد . وهنا تنكس الفلسفة المادية رأسها ، ويولى شيطان المبادئ المفرقة إلى حيث لا يجد لفخته من مجال .

فحتى عاد المسلم إلى نفسه وتصور ما ترمى إليه هذه التعاليم السامية أمكنه أن يفهم الرابطة بينه وبين كل فرد من أبناء دينه — أو جامعته الكبرى — فسلم تركيا ومسلم أفريقيا ومسلم جزيرة العرب مثلاً سواء في قانون هذه الوحدة ، واجب على كل منهم أن تكون روحه ونزعتة الحيوية العملية هي روح الآخر ونزعتة ، وأن تكون أيدى الجميع في تكوين هذا البناء الفكري والخلق يدا واحدة ، وهذا هو الأساس الأمر به الحديث القائل «المسلمون كالبنين الواحد يشد بعضهم بعضاً» .

وفي ذلك جانب أيضاً من الوحدة السياسية ؛ أما الجانب الأهم منها فشيء نظنه بعيد المنال في هذه الآونة ، وهو أمر فكر فيه فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغاني ، ولكنه كان فكرة فقط ، وحبذا لو تمكن المسلمون أجمعون أيما كان مقرهم ومحيطهم الجغرافي من ملاشاة الشخصيات العنصرية المتعددة لكي يفنوا في جنسية إسلامية واحدة كبرى ، كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابه إلى عهد كبير ، وكالأمر الجليل الذي يعنى به الآن صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز آل سعود المعظم في مساعيه وجهوده المبذولة صوب هذه الفكرة ، وأختها المتخرجة معها ، وهي «الجامعة العربية» وفقى الله أساطين العاملين في خير الإسلام والعرب ، وهو المسئول في إعادة العزة الأولى للمسلمين .

حديث مع الرحالة الأندونوسى

نشر هنا كلمة عن أوربا والشرق ، وهى ملاحظة بسيطة فيها من المعلومات ما قد يستفيد منه المطلع المتابع لحركة سير العالم ، وهى ليست بحثاً أو دراسة ولكنها كلمة أخذت عن فم عابر ، وحديث اقتطف من مشاهدات سائح هو السيد مصطفى رادين الرحالة الجاوى الأندونوسى الذى قام برحلة من بلاده فى عام ١٩٢٩ ومربالبلاد الأوربية ثم بالشرق ، وها هو الآن يلقى عصا تسياره بالحجاز ، وقد زارنا مرارا بإدارة الجريدة وبالدار ، فاستطعنا أن نستكتبه آراءه وملاحظاته عن بعض البلاد الشرقية والغربية ، وكان الوسيط فى التعارف بيننا وبين الرجل صديقنا الفاضل السيد محمد خليل المترجم العام بدائرة البرق والبريد . وهذا الرحالة شاب أقام سنة فى المانيا فاستفاد شيئاً من المعلومات ، ويتكلم عدة لغات ، منها الانكليزية والفرنسية والهولاندية ولغة بلاده طبعاً ، وقد وجهنا إليه الأسئلة الآتية فأجاب عنها كالآتى :

س - ما هو الغرض من هذه الرحلة ، وهل هو علمى أو راجع لأسباب خاصة ؟

ج - لأسباب علمية وقومية ، وهى أنى قائم لأدرس علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وهذه الدراسة تلجئنى لأن أمر بعدة بلاد ، ودراسى لأجل المعلومات فقط ، لا من أجل نشر أية دعاية كانت ، فأنا أدرس السياسة

علميا لا عمليا . أما السبب في ذلك فهو أنى أشعر بنقص كبير في المعلومات وحاجة للاطلاع ، وأنا أتخشى جداً أن يتسمم فكرى بدعاية سياسية خاصة ، لأنى أعتقد أن أية دعاية أقوم بها إنما تعوق رحلتى إلى أية بلاد أدخلها ، فضلا عن أنى لم أصل إلى الدرجة التى تمكننى من القيام بأى عمل سياسى .

س - متى بدأت رحلتكم من أندونيسيا ، وما هى البلاد التى رأيتموها ؟

ج - فى مايو سنة ١٩٢٩ ابتدأت رحلتى ، والبلاد التى مررت بها هى جاوى إلى سنغافوره ، إلى فرنسا ، وفيها زرت باريس ، ومنها إلى انكلترا وبلجيكا وهولاندا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر ويوغسلافيا وبلغاريا وتركيا وسوريا وفلسطين ومصر ثم إلى الحجاز . وقد أقيمت فى ألمانيا سنة حيث درست بعض فنون الاجتماع والاقتصاد .

س - أى شىء استلقت نظركم بالأكثر فى هذه البلاد ؟

ج - أما الناحية الاجتماعية فألمانيا ، ولهذا أقيمت بها أطول مدة ، والمانيا تعد من أفضل الممالك التى مررت بها من الوجهة الدراسية ، بدليل إنها خاصة بعدد كبير من الطلبة الاجانب ، وأنا شخصياً أعرف أكثر من ٤٢ دولة من دول العالم تفضل إرسال أبنائها إلى المانيا للدراسة على أية دولة أخرى ، وهذا بالطبع رأي الخاص .

س - وأى بلاد الشرق التى مررتم بها استلقت نظركم أكثر من سواها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ؟

ج - من الوجهة الاقتصادية تركيا لفتت نظري أكثر من بلاد الشرق الأخرى ، أما من الوجهة الاجتماعية فإنني أعتقد أن الاجتماع في البلاد الشرقية لا يزال في مهده بالنسبة لما شاهدته في أوروبا ، غير أنني قد لاحظت أنه أخذ ينمو ، فإذا استمروا على خطواتهم هذه فإنهم سيصلون في وقت ما إلى مكانة طيبة من الاجتماع ؟

س - هل يمكن أن تحدثونا عن حالة التعليم في أندونيسيا ، وهل هو قائم على الوطنيين أم على الحكومة ؟

ج - التعليم هناك يدار بواسطة الحكومة والأمة معا ، والحكومة تدير منه القسم الخاص بالعلوم الحديثة والفنون العالية ، وعدد المدارس وإن يكن قليلا جدا إلا أنه يقوم بمهمة كبيرة وقسط وافر من تعاليم أرق العلوم والفنون الحديثة ، غير أن نسبة التعاليم لا تزال منخفضة جداً في تلك البلاد بحيث لا تتجاوز ثلاثة أو خمسة في المائة من عدد أفراد الشعب ، وذلك راجع فقط إلى قلة المدارس ، وهذه النسبة المئوية ينتج منها عدد ضخم من المتعلمين إذا عرفتم أن عدد سكان هذه البلاد يبلغ خمسين مليون نسمة .

س - ماهو رأيكم الخاص عن البلاد الحجازية من وجهة الدراسة والاجتماع ؟

ج - من الوجهة الاجتماعية لاحظت أن البلاد التي رأيتهافي الحجاز تفضل بكثير ما يكتب عنها في الصحف الخارجية ، نعم أنا أعلم أن حالة البلاد من الوجهة الجغرافية والاقتصادية تعوقها كثيرا عن أن تتساوى والممالك الأجنبية من الوجهة الاجتماعية في الوقت الحاضر ، ولا يمكن أن يقال إن الحجاز يصعب عليه أن يصل إلى مركزه اللائق به في عالم الاجتماع ، فإن المركز

الاجتماعى لسكل أمة يتوقف على أشياء كثيرة من أهمها حكومتها وحسن إدارتها ، فقد زرت عدة مجامع مختلفة وأدهشتنى الروح الحديثة التى شاهدها فى كثير من أفراد تلك المجامع التى زرتها ، وقد استعرضت طبقات مختلفة من الناس ما بين عالية ومتوسطة وواطئة ، وتحادثت مع كثير من جميع أفراد هذه الطبقة من الأعيان وكبار الموظفين وغيرهم فوجدت انه يوجد نضال كبير بين أنصار التجديد والرجعيين ، نعم إن مثل هذا النضال يوجد حتى فى أرقى بلدان العالم ، إلا أن كفة التجديد تكون فى الغالب هناك أرجح من كفة الرجعية بشيء كثير ، وإن الحكومات إذا أساءت التدبير فى قيادة شعوبها فإنها تخلق بلا شك ارتباكاً اجتماعياً اقتصادياً أو دينياً بين أفراد تلك الشعوب ، ولو كانت الحكومة التى تدبر الحجاز غير حكيمة لكان الانفجار الذى يحدثه الحجازيون خصوصاً من الوجهة الدينية أشد انفجار تحدثه أية أمة أخرى ، وذلك راجع لتعادل كفتى التجديد والرجعية فى هذه البلاد تعادلاً يجعل التصادم بين الكفتين خطراً جداً على رفاهية البلاد ، بخلاف البلدان الأخرى التى تستمر فيها حركات التجديد ، وإنى لا أشك مطلقاً فى أن الحكومة الحالية تقدر حق التقدير تطورات العالم الاجتماعية وتنظر بحكمة وحرص شديد إلى هذه التطورات وتعرف حق المعرفة واجبتها نحو ذلك .

أما وجهة التعليم فإنى لا أستطيع أن أعطى فيها رأياً صحيحاً حتى أقيم مدة كافية فى هذا البلد أستطيع فيها أن أكون لى رأياً عن هذه النقطة .

الى الأمام الى الأمام

من حق هذا الشباب المدرسى على العموم علينا نحن الذين غادرنا مقاعد الدراسة إلى ميادين العمل في هذه الحياة ، وعلى الأخص نحن الذين حاولنا ما حاولته هذه الكتلة القائمة بإنشاء مجموعة « الشباب الناهض » من التجربة الصحافية الدورية التي لا تتجاوز الصحيفة فيها حد المحيط الصغير الذي يحيط بصاحبها — أو أصحابها — من الذين يتصل بهم ويعرفهم . من حقنا نحن على هؤلاء أن نمدحهم بكل شيء يمكن الإمداد به ، فننتحدث إليهم عن حياة في هذه السبيل قننا بمظاهرها إطفاء لغيليل الشوق إلى العمل الصحافي ، وأن نكتب إليهم ما يوائم موقفهم من الأبحاث والمقالات والمواضيع ليضموه إلى مصحفهم — أو صحيفتهم — وهم قابضون بعد ذلك بمنخر وإعجاب وشكر ولا ريب ، فقد لاحظنا ذلك في حركات أعينهم وألسنتهم وشخوصهم ، وإن نرشدتهم فنيا إلى كل ما نضن به في عالم الفن الأدبي ، خشية أن تنزلق أقدامهم ، وإن نعصدهم مشروعهم فعليا بكل الوسائل المستطاعة ، ونحن نؤمن بعد ذلك أن هذا ليس واجبا نحن — الذين يسميهم الناس أدباء هذه البلاد — فحسب ، بل هو واجب الوطنيين أجمع ، مادام هؤلاء يخدمون الوطن بهذه النشرات المحدودة الصغيرة ، فمن يدري إن كانت هذه لن تنتشر في بلادهم أوسع الانتشار وأقواه ، ومن يدري إن كانت لن تؤدي في سيرها هذا الضعيف واجبا أساسيا لعله بذرة صالحة في النفوس الطيبة ، ولعله نداء مسموع مجاب ، من يدري ؟ كلا إن

يتنبأ أحد بالمستقبل ، وعلى الأخص مستقبل الشباب المندفع المغامر المتصرف فى نواحي تفكيره إلى وسائل العلم والأدب والوطنية الصحيحة المستقيمة ، التى لاتشوب سيرها مقاصد مادية ولا أغراض قشرية يحسبها البسطاء لها .

فهل درى أحد أن « فرداى » عندما لعب بضفدعة ميتة ، كان مصير لعبه هذا الاهتداء إلى اكتشاف نظرية الكهرباء ؟ أو هل درى أحد أن عليا بن الجهم عندما خاطب الخليفة العباسى « المتوكل على الله » بأبياته البدوية التى أحسن ما فيها « انت كالدلو ... انت كالكلب ، ، وقال الخليفة « مشجعا ! » : « اتركوه مدة فى بغداد يرى ما فيها من وسائل الحضارة ثم انظروا كيف يرق شعره بعد ذلك » إنه سيكون بعد ذلك شاعرا خالدا فيقول قصيدته التى مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

أثرن لى الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر

أو هل درى أحد أن موسولنى عند ما كان شابا حقيرا شريدا يبيت فى الطواحين الخربة « صفر الوفاض بادی الانفاض » يحاول العمل فى الصحافة البسيطة فيتدرج به الزمن والتقدير^(١) حتى يصبح صاحب الكلمة النافذة ويقبض على تسع وزارات فى مملكته ، الأمر الذى ليس له مثيل فى التاريخ ؟ أو هل درى أحد أن « سيبويه » عند ما قال ، وقد وبخه

استاذة على كلمة لحن فيها : « سأتعلم علما لا يلخني بعده أحد » ، سيصبح يوما ما وهو زعيم علوم النجوم في الأرض كلها إلى أن تطوى العصور العصور والأجيال الأجيال ، ويصبح كتابه الذي ألفه فيه دستور العلماء وقرآنهم في هذا العلم ؟ كلا لم يدر أحد ذلك قبل وقوعه ، ولا كان في سعة أحد أن يتوقعه أو يتنبأ به .

كذلك — يا أخى المواطن أية كانت طبعتك — لست تدري ولست أدري ، ولا يدري أحد الآن ماهى مكانة المستقبل التى ستهيؤها الأقدار والظروف لهاته المجموعات البسيطة التى يقوم الشباب المدرسى بنشرها بدافع إخلاص عميق للأدب والعلم والوطنية لا تلوثه أغراض واطئة .

أقول من يدري ماذا أعده المستقبل لهذا العمل النقي واضربه من ضروب الرفعة وتقدير الجهود ! اللهم لا أحد .

إذن فلتبسط فرحا أسارير هؤلاء القائمين بهذا العمل المجيد ، وليضيئوا حياتهم بضوء الأمل المشرق ، والإيمان القوى بنجاح جهود الإخلاص .

ولنشجعهم إذن نحن وغيرنا ، فإنما من حقهم علينا هذا التشجيع فى كل أشكاله ، وسيحفظ التاريخ أعمال المجد لأصحابها رغم كل شيء .

فالى الأمام زمرة الاجتهاد ، ورجال المستقبل .

أدولف هتلر

لشخصية الزعيم الألماني هتلر ، جاذبية تستدعي الكاتب السياسي الذي يريد درس مواقف أوزبا الكبرى من العالم أن يبحث هذه الشخصية ، ومن ثم أن يبحث كيف تكون مذهب النازي « أو الناتشي » الحديث في المانيا . وعلى ضوء هذا البحث يستطيع الدارس أن يتعرف العوامل التي تحفز دول القارة الاوربية جمعاء - أو الدول العظمى ذات الاهمية الأولى في العالم - إلى تكوين سياستها الجديدة واختطاط السبيل التي تجدها في زعمها أقرب وسيلة إلى نيل السلام .

الهتلرية حركة شغلت - ولا تزال تشغل حتى اليوم - أذهان العالم في الغرب والشرق ، وقد أوجدتها في المانيا برنامج الضغط والتضييق الذي أخذت به دول الحلفاء بعد معاهدة فرساي ، والذي أوجده ايضا التصادم والاضطهاد الداخلي ونشاط الشبان ، فظهرت هذه الحركة بقوة سائرة بين شتى الصعوبات حتى استطاعت أن تجد لنفسها الحريق ، واستطاعت أن تأخذ بزمام الأمور في بلادها ، فأصبح العالم كله متطلعا لمعرفة كنهه هذه الحركة وما ترمى إليه .

ولد الزعيم أدولف هتلر موجد هذه الحركة في مدينة « برونو » على نهر « ألان » . وBruno هذه مدينة صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين الدولتين الجرمانيتين التي يرى شباب المانيا اتحادهما أمرا يستحق أن يبذلوا لتحقيقه

كل ما في وسعهم من وسائل، كما يقول هتلر نفسه في كتابه المسمى « كفاحي »
الذى نشر بكل لغات العالم الحية .

والدولتان الجرمانيتان اللتان يشير إليهما هتلر هما ألمانيا والنمسا ، وقد
مر بهاتين الدولتين عهد كانتا فيه دولة جرمانية واحدة . وهذا الغرض هو
من أعظم أغراض الهتلريين ، فهم يهتمون جدا أن يوجدوا هاتين الحكومتين
لتحقيق فكرة وطنية سياسية قبل أن تكون اقتصادية ، فهتلر كان يحلم : يجد
بسمارك موحد الشعوب الألمانية ، ويرى في تحقيق هذا الحلم العظيم إعادة
الكرامة لألمانيا التاريخية ، وإنصافا لموقفها السياسي الحاضر في هذا العصر .

درس هتلر في مدرسة برنوف ، وفيها تلقف الثقافة السياسية الوطنية
بمدركاته ، وبما أوحاه إليه في طفولته شعور الاطفال الالمانيين العام
من وجوب تعزيز أمتهم وضرورة دمج النمسا فيها .

وقد نشأ هتلر ، فقيراً ، ولكن لأسرته قليل من المال أتلفته حينما مرضت
أمه ؛ فسادف إلى فينا يبحث عن العمل الذي يعيش منه كما يبحث أمثاله من أبناء
الفقراء والأسر المستضعفة .

وكان أوضح ما لفت نظره في هذه المدينة الفتية الصاخبة بهيأة ثرائها
وإدارة حكومتها المركزية التي يراها في نظره من أكثر الأمور غرابة ، حيث
تمكّدت السلطات بصورة مشوشة في بلدة واحدة ، وكان يرى أن نظام
اللامركزية كفيلا بتحسين الإدارة في هذه الحكومة الهائلة .

وكان أدولف الصغير في مقامه بفينا العظيمة يستوحى العبر الباهرة ، فيدرك
أن الإصلاح يتطلب أسلوبا مزدوجا هو أن نشعر شعورا عميقا بأن علينا

مسئولية أن نوجد أسساً حسنة لسيرنا ، وأن نصمم على نفس المشاكل التي لا نستطيع لها حلاً .

ورأى هناك من برّس العمال ما أثر فيه واسترعى انتباهه .

وفي سنة ١٩٠٩ أخذ يزاول صناعة الرسم والنقاشة متجولاً في أسواق « فينا » وشوارعها العامة ، مصطحباً أزميله فيعمل ليكسب قوته ، لا يعوقه ذلك عن الدرس والتأمل ، حتى انفتحت أمامه أبواب الإدراك لمجرى القضايا الاجتماعية والسياسية والوطنية المتعلقة بألمانيا ومصيرها التاريخي العظيم ووجوب انقاذها من بغض النمسا .

بلغ العشرين من عمره ، فأدرك أن النقابات قد تكون أدوات للدفاع عن الحقوق الاجتماعية للعمال ، وقد تكون غير ذلك أدوات تستعمل في النضال السياسي ، فوجه نحوها نظره وأعطائها أهمية كبرى بالنسبة لأنظاره الواسعة ، ودرس الديمقراطية الاشتراكية التي وجد فيها نصيراً لحقوق العمال ، ثم وجد السياسة تستعمل أداة لتخريب الاقتصاديات ، ومن هنا نشأ عنده بغض « اليهود » لأنه رأى في صفات هذا الجنس ما يلائم تخريب الاقتصاديات التي وجهته إلى مبادئ الديمقراطية الاشتراكية .

وظل في فينا يتتبع حوادث ألمانيا السياسية والثقافية ، ثم أعجب بصاحب التاج غليوم الثاني ، وساءه أن يعتمد البرلمان الألماني على سياسة معاكسته .

وللفردية في رأى هتلر مقامها المحترم ، فهو يدعو إلى حفظ حق الفرد وعدم جواز تلاشيهِ في الجماعة ، وقد كره الشعب اليهودي ، لأن مذهبه ينكر قيمة الفرد بين الناس ، ويحارب أهميته القومية ، ويجرد البشر من كل معاني

وجوده واتجاهاته ، وهو بهذا — كما يقول — يقضى على كل الأنظمة البشرية وإن عد نفسه مذهبا بشريا .

وكان رأيه الأخير أن جمع هذه البلاد الجرمانية كلها تحت لواء واحد لا يكون إلا بإيجاد لغة رسمية واحدة تسيّر بتأييدها الإدارة فتكون عماد الدولة .

ورأى أن السبيل الواحد لتوحيد ذهنية أبناء الدولة توحيد دائما هو التعليم والمدارس اللذان رأى فيهما واسطتين لتحقيق هذا الغرض في عشر سنوات أو عشرين ، بل في قرون ، وهذا الأمر لا يفيد فيه الجهد المنقطع القصير الأجل ، وإنما يفيد فيه وينجح الشبات والاستمرار .

وهكذا كافح هتلر في الحياة ، ونشر مبادئه بقوة حتى اعتنقها الشعب الألماني بأسره ، وهو الشعب الذي انبعث فيه روح الحياة من جديد وأصبح يطالب أوروبا بمركزه تحت الشمس .

مناقشة مثل

تحليل قولهم « رضا الناس غاية لا تدرك »

هل يطلب ذو فكرة أن يرضى الناس عن فكرته المرسومة ، التي يرغب أن يطلقها مع أمواج الحياة تتغلغل في صميمها ؟ والناس على إطلاق الكلمة عالم لا يحد ، عالم واسع الآفاق يمرر بشتى النزعات وعديد العواطف ومتضارب الأهواء لا يكاد يجتمع فيه هوى على هوى أو تمتزج فيه نزعة ونزعة ، فالرضا العام بمعناه المتسع أو محاولة هذا الرضى من ذوى خطية حيوية إنما معناه تجربة لإمضاء طبع جديد ليس في عنصر الحياة ولا هو بما تتقبله الأمانى المعقولة ، ولكن فى أمانى البعض ما هو شاذ أهوج متهدم الأساس ، ينحدر شذوذه إلى مهوى الاستحالة السحيق ، وهو فى تهمده وشذوذه مسف إلى ما ليس فى طبيعة الوجود ، وعندما يحس بالاخفاق ونكران الحياة لموقفه غير الطبيعي تراه يتقدم إليك مصورا لك خيبيته فى الصرخة الدارجة : « رضا الناس غاية لا تدرك »

صحيح ، نعم إن رضا الناس - كما قيل - غاية لا تدرك ، غير أن فى جانب هذه الصحة صحة أقوى منها ، وهى أن رضا الناس حالة نفسية لا تغزوها اطماع مستقيمي التفكير ، فمن ذا الذى يظن أن الجماعات كلها فى مستوى واحد من العقلية وعلى غرار متسق من اتجاه العاطفة حتى ينتج من هذا انها ترضى متحدة وباطراد عن فكرة أو خطة أو عمل يقوم به فرد جبار ماض فذ

في مهمته ، من غير أن يكون لتلك النفوس المتباينة فعلها في تكوين مواقفها؟ أمام ذلك الأثر موقف لا يكونه إلا ما في طبيعة تلك النفوس المتعددة من استعداد لفهم ذلك الأثر؟ وكما يكون ذلك الاستعداد والتكوين النفسى «ضعفا أوقوة ، واستقامة أو اعوجاجاً ، ونفوذاً في الفهم أو تلكؤاً في سبيله» يكون الموقف الحاكم الذى ينطق عن ميله فيكون الرضى أو السخط .

ثم ما هو الرضى ، وما هو السخط ، في معناهما السطحي إذا شئنا ان نفهم المثل بهذا المعنى ؟ إذا كان الرضى المقصود فى المثل هو الهدوء الظاهرى ومقابلته المشروعات الجديدة أو النظريات التى تلوح مبدئياً أنها شاذة أو الأعمال الفردية ، بشبه ركون إلى صحتها أو أحقية وجودها من دون أن تكون الثورات الباطنية فى نفوس الجمهور موضع تمكيننا والتغلبنا . إذا فسرنا الرضى بهذا الحالة فما أهون قيمة المثل فى حياة التفكير ، وما أسخف ما يحمله من معنى ركيك مبتذل !! لأنه يكون القصد منه تعطيل ملكات النقد ومصادرة رأى العام وطلب الجمود وسلب الحرية واستقلال الفكر .

أما إذا كان الرضى المعنى فى الكلمة هو اطمئنان النفس واشتراكها الفعلى مع من يؤمل الرضى عنه بعد اقتناعها وإعجابها بقيمة الشئ المرضى عنه فهنا تكون الكلمة جديرة وحرية أن يعطيها المفكر قسطاً من همته ليناقشها كما تناقش الأفكار ذات القيم ، وإذن فنحن حريون أن نقرر فلسفتنا آنفة الذكر مثبتين أن النفس الإنسانية حافلة بشتى الميول والتصورات والوان الانفعالات والنظر والاستعدادات لفهم ما يصدر عن «الانسان» من عمل أو فكر ، فالإنسان انسان ، وهو أهول ما يكون فى نفسه العميقة

أيها الموت^(١)

شعر منشور

أيها الموت !

أى بلاء أنت ! تدع النفوس منسحقة كذرات الهباء ؟

أية داهية خرساء ! تنزل بالأرواح فاذا هى لا شيء !

ياموت !

هأنذا الآن أحس وأفكر ، وأكتب وأنظم الشعر ، واتأمل الحياة ،
واتمرد على نظمها عندما أشاء ، ثم أعانقها وأتغلغل فى ملابستها ، ثم أعيده
الكرة عليها دواليك ..

ولكن ياموت ! أين أغدو بعد خمسين سنة ، أو أربعين ، أو
ثلاثين ، أو عشرين أو ربما بعد عشر سنوات وربما بعد أقل ، وقد يكون
هذا الأقل ساعات أو لحظات ؟

وأين يكون مصير هذا الغدو ومستقره بعد مائة عام أو مائتين ... ؟

أصبح عند ذاك أن جسما بشريا « كان » فى هذه الحياة ؟

كان انسانا يفكر ويحس ، ويكتب ويشعر بالحياة ، وتلابسه ويلابسها
ويتعمق فى نظراتها ويطنعها فى صميمها مرة ويقدها مرة أخرى ؟

« كان ! »

« كان » هى الكلمة الغارقة بين بلاء الموت ونعمة الحياة .

أنا الآن في غمار العالم الخى أفكر فى وقعك الهائل يوم تقع ، أفكر
أية قيمة بعد لهذه النفس المشتعلة ككوكب السماء ، أو كمصباح الكهرباء ،
تشع بنورها المقدس وهى إحدى نفوس محتشدة بعضها يطفح بنوره الدافق
وبعضها يبص كما تبص قطرات النداء .

ياموت يا أسد الحياة المفترس !

ويل لها منك ايها الجبار الاثيم ، وويل لك منها !! إنها تصب عليك
لعناتها ... ولكن بلا جدوى !

وهأنذا الآن ألقى بالقلم وقتيا لأنصور فتور الحركة بعد الحياة .
يالتصور !! ، وهأنذا أرمق أشعة الشمس من نافذة المكان ! هذا المكان
الذى سأغادره حتما الى عالم الابدية الذى سافر اليه كل من « كانوا » فى
الوجود ! ابطالا وجبناء ، وعلماء وجهلاء ، اذكىاء واغبياء ، دهاة وبسطاء ،
متشائمين ومتيمنين ، متمردين ومستسلمين ، شقى جيوش حشدتها الحياة
فهزمتها أنت ساخرا بقوتها دما با فى عملك ولا تقف دورات الافلاك ولا
يستريح مضى هذه المجموعة الشمسية السائرة ولا يتغير هذا النظام .

وبعد ، فهل يتاح لك ايها الجبار اللبق ان تلقى هذا الستار المسدول دون
ما ترى اليه ، وان تخفف وطأة الشفف عن هذه العقول التى تلوب حول
اكتناء اسرارك الرهيبه ، والتى تصطبى بحجيم لا يطاق من حب المعرفة
واللهف الى العلم العميق ، والتى اذا رامت ان تالط من لفح غليلها العلى
قرعت اجراس الحياة بأنامل الفلسفة واوغلت فى تفتيش المجهول عن طريق
الفكر ، وأنى للفكر والفلسفة ان يعينا عليك الحياة ؟

ألا ما أروعك ايها الموت ، وما أعمق اسرارك ، وما اشد ما يصدر عنك
المفكرون كما وردوا غير واقعين على المقصد المنشود من هجماتك
ولمساتك ايها الكائن الكبير .

السعادة

ما السعادة ؟ وما طريقها ؟ وهل هى متاحة ميسورة لطلابها فى هذه الحياة ؟ تكاد هذه الخواطر تكون عامة من حيث انها ترد على كل ذهن وتطرق كل مخيلة فيما أظن ، ولكن الشئ الوحيد الذى يتمتع عن العقول العامة ، ويعسر على معظم السواد الأعظم ، ويعرب عن بال المجموع ، ولا يستطيع اصطياده لكل ذى سهم أو أحبولة ، انما هو الجواب الحقيقى على هذه الأسئلة والعصى المشبع المعقول الذى يطفىء الغلة من طريق البحث والتقرير . وللناس آراؤهم فى هذه المسائل ، وهى طبعا مختلفة متشعبة ، كل يرى السعادة كما يجب أن يراها لا كما هى ، وكل يفسرها التفسير الملائم لعقائمه وطبيعته تفكيره ، ولكنه يعجز عن تفسيرها التفسير الذى يحددها ويضع معالمها ويشرح أجزائها وجملتها ، ويقنع كل طالب للبحث أو سائل عن الحقيقة ، فمن ظان ان السعادة هى توفر المطالب الجثمانية ، وطريقها إذن هو الغنى والصحة والشجاعة والقوة والنفوذ . ومن قائل إنها اكتمال النفس من حوافز الحياة الروحية ، فسيبيلها إذن الفضائل الذاتية والفضائل العامة كالإخلاص والعلم والعمل والمحبة ، وهو رأى المتصوف وبعض الآخذين من العلم الدينى بطرف ، وما إلى هذه الوسائل ، وقائل آخر يزعم انها تركز العقل عن طريق التهذيب بالمعرفة والثقافة ، وآخر يقول إنها لذة العيش عامة بالتخلي عن كل قيد وفكرة وإراحة النفس من أعباء الإنسانية ، وطريقها فى هذه الحالة طريق سلبية وهى الجنون أو « الابتقورية » أو

الاستهتار . وأنا ما رأي في السعادة ، وفي الطريق الموصل إليها ، وفي امكان تيسرها للطالبين ، أو عدم امكان هذا التيسر ، إذا كان لي رأى ناضج محتتمر في هذا الموضوع الفلسفي ؟

رأى أن السعادة هي الأمل العظيم المعقول ، تخطئ النفس في سبيل تحقيقه ومزاويلته ، ويبقى لها إيمانها مكان هذا التحقيق ، فلا سعادة لنفس ليس لها مطالب وأتعاب ومنى ، ولا طريق للسعادة العليا إلا من داخل النفس ، فكل وسيلة خارجية تطلب بها السعادة ليست إلا وسيلة مخدوع بها المرء ، وإنما وكده من تلك الوسائل أن تبلغ به سفح السعادة ، مهما حسب المسكين أنه بالغ قمتها ، وإنى له بلوغ القمة وهو لا يملك قوة المطار إليها ، هالم تكن تلك القوة في أعماق نفسه دفينه راكنة ؟ ، وأذكر للقارىء رأى في السعادة قبل ثلاث سنوات حيث كتب إلى أديب بمكة رسالة يستنبئ بها نبأ صحتي وهل أنا سعيد ؟ فأجبت بما يأتي :

« السعادة — كما أتصورها الآن — شيء أساسه التخيل ومرجعه الوهم ومغالطة الإدراك . ولا أدري إلى أى مدى يصل عدد الذين يستطيعون أن يتركوا الوهم في أنفسهم يسيطر على الإدراك من أجل أن ينالوا متعة هذه السعادة المتخيلة ؟

أحسبك تزجر . وإلـكى تكون زجرتك أشد أقول لك إنى غير سعيد بحياة تزدهم فيها رغبات النفس ثم أحس فى خلالها بتلك الرغبات وهى تتصافق حتى ليزعج وجدانى تصافقها المشتد ، ثم أرى قسوة الظروف وسخف الفهوم يسدان الطريق أمام حرية تلك الرغبات الملحة القوية التى لو أتيح

لها أن تقتصر الظروف أو تتخطى حدود الأفهام لما تملكأت ساعة واحدة
ولأقدمت إقدام الأتقى لا يلوى على شيء ولا يقف في سبيلها شيء، ولكنها
أشواك الحياة يا صاحبي ليس منها بد للسائرين في هذا الحقل الممتنع .

هذا أعظم خبر في أحوال حياتي أرويه إليك إذ كانت رغبتك أن تعرف
أحوالي كما ذكرت ، وإخال أنه في الوقت نفسه أعظم أخبار الحياة البشرية
بأسرها ، لأنه خبر دائمى تستشف منه طبيعة النفس الإنسانية »

هذا ما جاء في رسالتى القديمة عن السعادة ، وهو رأى صادر عن فلسفة
التشاؤم الطبيعية . والرأى تعتريه ضروب التغير السطحى بل العميق أحيانا ،
فتنتقل النفس في تكوينه من شاطئ قريب في الفكر إلى شاطئ بعيد ، وقد
يكون الانتقال من شاطئ بعيد إلى شاطئ قريب أو إلى أقرب ، وهى
حالات — كما قلت — تعترى النفس فيسرى مفعولها إلى الفكر ، وهذا هو
واجب الحياة الذى تؤديه فى النفوس البشرية وإلا لو جمدت النفوس
والأفكار على لون واحد — وأقصد اللون الظاهرى — من ألوان التفكير
لانتقلت هذه الحياة إلى جحيم موبوءة لا مستقر فيها إلا للشياطين والزبانية ،
ولساد سوء التفاهم وشراسة الخناق ، والإنسان ميال بطبعه إلى المفاهمة
والتعارف والاجتماع ، فإذا اصطدم بما يقطع عليه الطريق لتحقيق نتيجة
ذلك الميل فلا تفتأ أن تراه بشرا مستأسدا وروحا متممرا ليس ببعيد
عن الوحش الضارى والكلب العنيد .

لهذا أرى ان الحياة محسنة جدا إلى الأحياء ، إذ هى لا تترك النفوس
الإنسانية رهينة نمط واحد من أنماط الأفكار ، ولكنها تتناول هذه النفوس

بالتقليب والغربة ، فتارة تصفو وتارة تربد فتجيش بأسرار الحياة وتكون
آراؤها كما يجب ، فتتفاهم ويسهل للعلم والفلسفة أن يمشيا في طريقهما وأن
يؤديا رسالتهما بينتين متزنتين فلا مفر إذن من الألوان تتعدد في آراء المرء
ولكن المفر محتوم من التباين في هذه الآراء .

فن الرواية

قصة « مرهم التناسى »

لست أقصد دراسة مشبعة في هذه التأملة ، وإنما هي كلمة مقتضبة سريعة فاقدة أبعثها في عجلة الأعمال غير الأدبية وبين موانع الظروف التي تقصرني على عدم التفرغ للأدب والنقد ، كلمة أثارها عندي الرواية - أو القصة المنشورة في الأسبوع السابق باسم « مرهم التناسى » للشيخ عبد القدوس الأنصارى . وأذكر القراء بما كنت كُتبتة ماضياً عن عبد القدوس هذا من عاطر الشناء بمناسبة أبحاثه وملاحظاته اللغوية التي نشرها في أعداد هذه الجريدة . أما الآن فأقف معه موقف الناقد الفنى الصريح بمناسبة نشره هذه الرواية - كما سماها - فإن الفن غير العلم أيها الكاتب المحترم ، وإنه لا فن ألبتة في هذه القصة التي نشرتها على الأسماع والأبصار ، ولا روح فيها ولا ذوق ولا خيال ، وسيأتيك البيان المفصل . واعلم قبل كل شيء أنه لا ضير عليك ألا يعبدك الأدباء الفنيون أديبا فنيا أو روائيا أو قاصا على الأخص ، فليس ذلك من شأنك ، وإن لك لشأنا في الأدب غير هذا ، فإذا عدوته إلى سواه فأنت جد مسف .

الرواية يجب أن تقوم على موضوع اجتماعى قوى ، أو على مذهب فلسفى جدير بالتنويه ، أو على الدعوى إلى خلق أو عقيدة تحدث ملء الفراغ ودويا في قيعان النفس ، وأن تعلمي درسا جيدا له من الفكر والواقع

عماد مدعم ، أما أن تكتب قصة هي أشد الكلام شبهاً بحكايات « جحا » أو نوادر عجائز البيوت في الضعف والفتور تقصد بها الموعظة القصيرة وترمى على علاتها يتخللها الجفاف والضعف فذلك شيء يرفضه الفن والأدب . ولقد ذكرنا الشيخ عبد القدوس هذا بروايته « التوأمين » التي نشرها على حدة فلم تصادف رواجاً في الطبقات الأدبية الممتازة وعند الشباب المثقف ، لأنها خالية من كل مقومات الفن الروائي الجيد الذي يجتذب النفوس ويلقح العقول ، على ما فيها من ثقل الوطأة وضعف الفكر وتفاهة الموضوع وفقدان الاستقصاء وثر الفكرة وحشو اللفظ ورداءة المعنى ، وكان في عز منا أن ننقدها حين ظهورها ، ولكننا تركناها تموت بنفسها وبغعل الحياة القوية التي لا تقبل إلا القوى وهكذا كان . فما راعنا من كاتبها إلا وهو يرزأ الأدب مرة ثانية بقصة ناضبة يحدثنا فيها عن « حقيقة » تكتظ بالحزن والهموم علقها صاحبها في نياط قلبه ودار بها في الأسواق كأنما هي حقيقة حلاق أوجرة بائع عرق سوس ، أو بردعة بعير ينوء بها حملاتم « مرهم التناسي » المستخرج من « صيدلية الآمال » فيما لهذه الغثاءة والإسفاف في التعبير إلى حيث تنصفع الآداب العالية ، وتهان كرامة الفن القويم .

وإننا ننصح للشيخ الكاتب أن يتناسى هو بدوره فكرة كتابة الروايات فإن روحه الأدبي ليس روح روائي ولا كاتب فنان ، وليلعد إلى بحثه اللغوي في دائرة قواعد النحو والصرف فإنا له شاكرون ، ولجهوده فيه مقدرون .

إلا أن التفاهة في الأدب النفسى شيء يقعد به عن النهوض ، فعلى الشاعر والكاتب والأديب أن يحس بروعة الفن الحى ، وأن يأخذ هذه الروعة

من جمال الحياة وقوتها ، وصدق الطبيعة وانسجامها ، وأن يوجه سير الأدب إلى الجهات الحقيقية الجديرة بالتقدير والإعجاب والاهتاف . أما إن عجز عن هذا الأمر فليترك سبيل المعالجة المتتوية الناقصة . ولقد عرفت من عبد القدوس الأنصارى أنه ليس من ذوى المملكات القديرة على الفن الروائى . وإنا لنعد قراءنا الكرام ببيان ملاحظتنا النقدية فى فن القصص الحديث فى فرصة سانحة تخول لنا التبسط فى شرح الموضوع .

أما الآن فسيأتنا تبين مناحى العجز فى هذه الأقصوصة التى نحن بصددھا ، وإنه لفى ما يأتى من النقاط :

(١) انعدام الجو الفنى اللازم للقصة .

(٢) قصر النظر فيها إلى حالة النفس الانسانية بترك تحليل الأخلاق والعواطف ، الأمر الذى لا يجوز إهماله مهما قصرت الرواية .

(٣) بعدها عن حقائق علم النفس .

(٤) المفاجأة البشعة فى الانتقال من خلق الرجل المحزون إلى رجل مراح بفعل « مرهم التناسى » طبعاً ! بدون تمهيد أو تعليل معقول .

(٥) خلوها من الخيال الممتاز برغم ادعاء كاتبها « فى الحاشية » أنها « امتزج فيها الخيال بالواقع » .

(٦) البلى والبرود والتفاهة فى موضوعها .

(٧) جعلها عبارة عن موقفين متناقضين بدون أن يعمل الفن عمله

في تطبيق هذا التناقض على طبيعة الحياة ، كما هو الحال في قصة التوأمين أيضا .

(٨) سوء الأسلوب وضعفه وركا كته .

(٩) حسبان المؤلف أن الخيال هو الاستعارة القديمة الممثلة في وضعه للآمال صيدلية ، وللتناسى مرهما ، وللأحزان حقيقة ، ولم ينس أن يستخرج من هذه الصيدلية « رويشتة » طبية بالدواء اللازم كتب فيها لصاحبه الحزون (تواظب على تعاطيه في غدواتك وروحاتك) !

(١٠) فقدان الانسجام . الخ .

ولو كانت هذه القصة طويلة كقصة التوأمين لأقنعنا مؤلفها بشرح كل نقطة من هذه النقاط العشر التي سردناها له شرحا دقيقا وضرينا له الأمثال من قصته بأوسع بيان ، ولكن هذا المقال لا يتسع لذلك والقصة نفسها لا تستحق منا هذا العناء .

فإلى المتق . الى حيث تشاء المناسبات إن نعرض لقصة التوأمين إذا بدا لنا أن نعرض لها ، فإن العيوب في الروايتين واحدة ، وروح المؤلف فيها واحد .

عود على قصة « مرهم التناسى »

قلنا فى مقالنا المتقدم ما مؤداه : ان « الغثاة ولوائح التلاشى وسعة الدعوى التى يشمئز منها الباحث فى قفزة ذلك النفر الضئيل » من العبد القدوسيين أو العبادة ، كما تشاء النسبة والنحت » الذين زجوا بأنفسهم فى صف الكتابين ستعلن عن نفسها عندما تبدأ هذه الأدمغة الجوفاء فى الهوى إلى بؤرة الأفلاس العقلى » ولقد صح تنبؤنا هذا ، ورأى الناس على صفحات صوت الحجاز الماضى أوحالا من اقدار الذهن الكليل ليس من كرامة النفس ، وليس من كرامة الفكر ان تنزل الى الاجابة عنها ، وانما اروع سخرية بتلك العقول أن نعود الى البحث الهادى فى تحطيم حكايتهم « مرهم التناسى » من جديد ، وذلك بأن نشرح كل نقطة ضعف فيها مما سبق ان أشرنا اليه فى العدد الحادى والثمانين من هذه الصحيفة ، لعلمنا ان هذا الضعف انما هو فى فن مملها قبل أن يكون فى هيكلها ، ولتريهم أنى يقع الأدب الأجوف من الأدب الملىء ! وإلى القراء ما يأتى فى تحليل الخلل « فى القصة » :

١ - انعدام الجو الفنى

ماهو الجو الفنى أولا ؟ ذلك ما يخطر للقارىء أن يطلبه منا ، وهذا ما علينا أن نبينه لعبد القدوس الشنقيطى ، لا الانصارى ، فقد قيل لنا إنه

ليس من هذه العائلة الكريمة من أهل المدينة المنورة ، فإننا نزعم أنه يحمله بامرة هو ومناصروه الضئال بحكم بعدهم عن الثقافة وعلى الاخص في فنون الأدب .

فالجو الفنى الرواية ، إنما هى المعلومات والبيانات التى يجب أن يعرفها القارئ عن زمان الرواية ومكانها وطقسها والشخصيات الذين يتحدث عنهم الكتّاب فيها ، والظروف السيئة والحسنة التى تحيط بهم لئتم للكتّاب إعطاء فكرة ناضجة عن الموضوع الروائى الذى يعالجه ، وليكون التأثير فيما يدعو اليه أدعى الى أن يتقبله القارئ . وهذا هو الفرق بين الرواية وبين النادرة والفكاهة والحكاية التى تقصد منها الموعظة القصيرة التافهة والتسليّة كما هو الحال فى مثل هذه النادرة الملفقة التى يأبى جمل ملفقها الا أن يسميها رواية أو قصة . . .

قال الأديب الفرنسى العظيم « الفونس دى لا مارتين » فى مطلع روايته الخالدة « رفايل » : ان من الامكنة والاجواء والساعات والفصول والظروف الخارجية ما يتصل سلسكة بحبات القلب ومشاعره ، حتى لتخال الطبيعة جزءا من النفس ، والنفس جزءا من الطبيعة ، فاذا فصلت المسرح عن الرواية والرواية عن المسرح ذبل المشهد وضوّلت الفكرة وانمحت العاطفة . جرد « رينيه »^(١) من شواطئ بريطانيا الصخرية ، و« آلام فرتر »^(٢) من أنديّة السواب السكشيفة ، و« بول فرجينى »^(٣) من غوارب الماء المشبعة

(١) هو اسم رواية صغيرة جدا للكتّاب الفرنسى شاتوبريان .

(٢) هى رواية فلسفية اجتماعية خالدة للشاعر الالماني العظيم جوتية عربها الأستاذ الزيات بمصر .

(٣) اسم رواية غرامية للكتّاب الفرنسى برناردن دى سان بيرمعرية بقلم المرحوم المنفلوطى بعنوان (الفضيلة) .

من الشمس ، وجبال المارن الناضبة من الحرارة فإنك لا تكاد تفهم فن « شاتوبريان » ولا « جوتييه » ولا « برناردن دي سان بيير » .

هذا هو الجو الفني اللازم للقصة ، فافهمه جيدا من تحدته نفسه بكتابة الروايات ، وليقل لنا الآن ذلك الطفل الكبير اين هو الجو الفني في حكايته المسكينة الجحوية الفارغة ؟ ثم لا يحسب أن حكايته الثانية المطبوعة على حدة سلت من هذا العيب الفاضح فإن الجو الفني منعدم فيها أيضا . وإلى الملتقى حيث البيان المفصل عندما ننقدها على صفحات هذه الجريدة بإسهاب .

٢ — قصر النظرة إلى النفس الإنسانية

النفس الانسانية عباب تصفق امواجه وتصطخب أواذيه ، وهى مثال حسن للطبيعة ، فيها ما فى هذه من الإبهام والهلول ، وما فيها من الوضوح والاتساع ، فالكاتب — ولا سيما الروائى — إذا أهمل حالة النفس الانسانية وغفل عن تحليل ما فيها من بواطن الاخلاق والعواطف فإنما هو صفاف حروف وليس بكتاب أفكار ، فإذا نظر القارئ إلى قصة هذا الرجل الشاذ ولنسمها قصة تساحا — وجد نفسه وهو مغمض العين أمام شخص لا يدري ما هو وأين خلق وكيف تكونت اخلاقه ، ومن أين أتى إليه هذا النضوب النفسى الذى حمله على ان يحرص « على تسجيل آلامه ونقش أحزانه على صفحات قواده فلا يكاد يصيبه غم — حقيرا كان اوجسما — الا أفسح له فى صدره مكانا ، وآواه الى مستودع خاص » ؟ فإن نفسا كهذه لا شك أنها

تستلقت النظر، ولكن نظر الكاتب الضائع طبعا لا الكويكب المتطفل —
وتستحق ان تدرس وان تحلل اخلاقها وظروفها لتعرف أوصل صاحبها
الى هذه الحالة نتيجة تفكير في اوصاف الحياة، ادى به الى العزوف
والزهادة الفلسفية في محابها ولذاتها ففسح للآلام في نفسه الجانب الحصين
فهو يفعل هذا رياضة وتجربة وتذوقا للآلام التي أهل لنفسه اسبابها ؟ أم هو
رجل منكوب رزىء في أعز الأشياء عنده فرأى الحياة من جانبها القاتم ،
فهو يفعل هذا اضطرارا وخضوعا لقوة خارجية قاهرة ؟ هذا ما يجب
ألا يهمل في موضوع كهذا ولكن الكاتب أهمله متناسيا — او ناسيا
لا ندرى — واجب موضوعه الروائي الذي تصدى له والذي لو وفق اليه
لأعطى قراءه الفكرة الحقيقية لحياة الرجل المحزون فيظهر الموضوع
تاما مشبعاً .

٣ — بعدها عن حقائق علم النفس

أجل، فرغما عن هذا القصور فإن صاحب الحكاية يصطدم فيها مع حقائق
قررها علم النفس . خذ مثالا قريبا جملته المتقدم ذكرها التي يقول فيها عن
بطل حكايته الموهوم : « فلا يكاد يصيبه غم — حقيرا كان أو جسيما —
الا أفسح له في صدره مكانا وآواه الى مستودع خاص به » فهذا ضعف
بصورة بحقائق علم النفس من ناحية انه لا يصح ان تكون في النفس البشرية
مستودعات خاصة بالهجوم ، أو الغموم على حد تعبيره ، اذ ليست النفس

البشرية مخزنا للبضائع يرص فيها كل صنف في رف من الرفوف ووحده لا يختلط بغيره وإنما هي كلها منبع — لا مستودع — واحد لعدة منابع — ومن طريق أخرى لا عدة مستودعات — لمجمل النوازع والعواطف والأفكار تموج فيها وتضارب ، كما هو شأن الخضم العميق ، أما الجمادات فهي وحدها التي يكون فيها مستودع خاص للأشياء ، لا الأنفس ولا الصدور .

ونخذ مثالا آخر : هذه الحقيقة المضحكة التي يعلقها بطل الحكاية بنياط قلبه وهي تزخر بماضى أحزانه حاضرها ومستقبلها ، فهل حدثنا العلم الحديث عن مكان هذه الأنوطة وهذه الحقائق التي تعلق فيها من القلوب الآدمية ، وعن نوع هذه الأنوطة « المسامير » الخاصة بحقائق الأحزان ؟ وهل الأفراح أيضا حقائق أخرى يعلقها من شاء بأنوطة أعدت لها ؟ وهل أنوطة حقائق الأحزان هي نفسها أنوطة حقائق الأفراح ؟ يا للهزلة الفاضحة والغباء المغلظ والعماية الصماء ، والطفولة في بسائط العلم !

ومثال ثالث : هذه « الحوالة » الطبية التي يدفعها صديق البطل أو طبيبه ليحيله الى الصيدلي الموهوم فيعطيه مرهما من التماسي استخرج من صيدلية الآمال . ولنصرف النظر الآن عن غثاثة هذا التعبير لنشرح كيف يستحيل ان يكون التماسي صادرا عن الأمل ، فعلم النفس — ايها الجاهل به ! — يثبت ان الأمل قوة ايجابية عميقة تنظر الى الامام لا الى الخلف ، وتوحي عواطف الايجاب لا عواطف السلب ، والتماسي انما هو شيء سلبى يتعلق بماضى الحياة وذاهبها ، لا بمستقبلها ، فهو يتولد من وشائج الأفكار الماضية ،

وما يلوح فيها من بوارق الذكريات الجميلة ليس الا ، والتناسى فضيلة ، ولكن
ليس كل الفضائل وليدة الأمل ، وهو خلق رزين ، أما طبيعة الأمل فهي
تمت الى التوثب والطموح ، ومرجع التناسى بعد هذا كله الى خلق الصبر
أو إنكار الذات ، واين هذان الخلقان من الأمل ؟

ومثال رابع . . . ولكن حسبنا تحليلنا للفق من القول لا يستحق هذه
العناية منا ، فإن بقى بعد هذا زعم لزاعم من المكابرين فلينتطح من شاء رأسه
بما شاء !

٤ - المفاجأة البشعة فى انتقال الأخلق

هذا شئ وقع فيه صاحب الحكاية من غير أن يقدر عنان عقله على
الابتعاد عنه ، فالعقل والنوق كافيان للتنبيه الى أمر فظيع كهذا ، ولا دخل
هنا لعلم النفس ولا لغيره من العلوم ، فالصغار من غير الدارسين يفقهون
بالبداهة أن هذا أمر ليس مرجعه علم النفس وهو لا يغيب عن فهم
اى انسان كان له حظ من الإدراك ، حيث يعلم ان رجلا تتناوبه الهموم
الى درجة ان كون لنفسه منها جانبها كبيرا وأصبحت هى ميزته التى يعرف
بها لا يمكن أن تنقلب أخلاقه فجأة - انقلاب البهلوان - الى المرح الواسع
و « الابتهاج الروحى » إلا ان يكون فلتة من فلتات الطبيعة أو رجلا يعالج
الحياة المريضة الشاذة بين الزوج الذين لا يعرفون معنى الحياة ولا يفهمونها
إلا من جانب الشهوة والمفاجآت .

ولعل الملفق يزعم ان الانتقال كان تدريجيا ، فإن الرجل المريض اقتنع
ثم وصل الى « الصيدلية » ، ثم أخذ يعمل على الإقلاع عن عادته في الكتابة
فهذا لا يزعمه إلا صغار الأدمغة وفارغوها الذين لم يتعلموا بعد أن للعادة
طبعاً قاهراً ، فكيف بالطبع نفسه ؟ ومدار حديثنا هنا عن هذا العمل على
الإقلاع كيف حصل ! وليس في الأقصوصة المنقودة ما يفيد حصوله
أو يشير اليه .

٥ — خلوها من الخيال الممتاز

يقول صاحبنا إن « هذه القصة امتزج فيها الخيال بالواقع ، ونحن نسأله
قبل أن نعلمه فقد مللنا تعليمه ، ما هو الخيال ؟ وتحداه أن يجيبنا اجابة
مقنعة وإلا فعليه أن يتلقى الدرس عنا فيما بعد ، ثم ما هو الخيال الممتاز ،
الذي نشكره عليه ويدعى هو وجوده قبل أن يتبينه من كلامنا ؟ ثم ليطبق
حكايته الهالكة على ذلك وإلا فسنصله نار التقريرع جزاء عجزه وتجرؤه على
الحال بما تعثر فيه قدماه !

٦ — البلى والبرود والتفاهة

درس في اللغة والفن :

(١) البلى — هو الإخيلاق والعثق « سواء في التعبير أو في الفكرة »

(٢) البرود - هو عدم تأثير الأثر الفني على النفوس .

(٣) التفاهة - هي الحقارة في اللفظ أو المعنى أو الموضوع .

ففي الحكاية عتق بين مرجعه نقص دراسة مؤلفها ، فهناك الحشو والتكرار لكلمات وجمل لا معنى لها ولا داعي لتكرارها . انظر الى أول جملة يفتح بها الحكاية وهي قوله « كان حريصا على تسجيل آلامه ونقش احزانه » فما هو نقش الأحزان إن لم يكن معناه موجودا في تسجيل الآلام لا سيما في موضوع كهذا ؟ وهل هذا يصدر إلا من نفس لها أتم الصلة بعصور انحطاط اللغة ؟ وفي الحكاية برود يرجع إلى ضعف قوتها الفنية ، فجلها مهمللة وموضوعها فاطر يقرؤها القارئ للتسلية فلا يلتذ حتى بالمتعة البسيطة المرجوة من التسلية ، التي تؤديها أقل حكاية أو نادرة مما ينشره تلاميذ المدارس الابتدائية في باب الفكاهة من الجرائد السيارة ، وفي الحكاية تفاهة تتجلى في حقارة مغزاها ، اذ ما ذا يكرث القارئ إذا انقلب رجل الحكاية فرحا مبتهجا - وهذا لا يكون كما أسلفنا - بعد انطباع نفسه على الألم والانكماش

الرد على زوبعة مضحكة

لقد طال سكوتنا على هذه الفئة من المبتدئين في مزاوله الأدب، فظننت أننا إنما نسكت عنها عن رضى لما تنتجه أقلامها الضعيفة، وبلغ الغرور في الادعاء عند بعض أفرادها إلى حد الظن بنا أننا نسكت عنها خشية من تلك الأقلام التي لا تعرف غير الأدب السقيم وعرفانا بها، وطال بهم الظن في المسألة حتى تناولنا بالنقد قصتين لفقهما أحدهم من نزلاء المدينة طبعتهما إحداهما ككتاب بعنوان «التوأمين» ونشرت الأخرى في أحد أعداد هذه الجريدة بعنوان «مرهم التناسى» فصوبنا معول الهدم إلى هذه فذكت أركانها، ومسسنا بمبضع الجراحة هاتيك واعدن بمعاودة الكشف عن سخافة موضوعها وضعف أسلوبها وخطأ تفكيرها وفساد فنها في فرصة تسنح لنا فكلتا القصتين إنما يمثل أدب الصبيان، فقاموا وقعدوا وصرخوا وفرحوا في مستقر نفوسهم، إذ وهموا أنه لو لم تكن القصتان ذواتي شأن في عالم الأدب لما تقدمنا إلى نقدهما، ولما كان نصيهما عندنا غير الإهمال، وإذن فنحن أحسننا صنعا إلى الأنصارى ملفق القصتين من حيث أننا لم نقصد ان نحسن إليه الصنع برفع شيء لم يرفع الله قيمته، ولكننا كنا نقصد اصلاح الفن الأدبي الحجازى وإرادة النقد لذاته ليس غير، جريا مع الثقافة التي نضطلع بأعبائها وذوق النقد الذى يمتزج بتفكيرنا، ثم سواء لدينا بعد ذلك أيهبط ثمن الكتاب الذى ننقده أم يرتفع في ميزان الرواج التجارى وتباع منه أربعمائة نسخة فى الهند والجزائر وغيرها - كما قال أحدهم عن قصة التوأمين - أم لم تبع نسخة واحدة، فقراء هذا النوع من الأدب الضعيف لا يحصون.

وغير عسير على أبسط مفكر في البلاد العربية أن يضحك ساخرًا لما عمد إليه ذلك النفر الضئيل في المدينة من الزج بأنفسهم في صف الكاتبين والمفكرين في الوقت الذي لم يحسنوا فيه « القراءة العالية » بعد قفزة غير محمودة الأثر ولا مقبولة المظهر، ولكنها تغري الباحث بالاشمئزاز من غشائية بلغت حدها الأقصى، ولوائح تنبئ عن التلاشي السريع، ودعوى واسعة المساحة عريضة الأكناف ستعلن عن نفسها عندما يبدأ هوى هذه الأدمغة الجوفاء إلى بؤرة الافلاس العقلي، وثرثرة لا تجد فيها حين فخصها الاشيئين اثنين ليس غير: شباب جاهل لم يبلغ من الدراسة مبلغ الثقافة والتميز، يندفع مع الصائتين من غير روية ولا اناة، وكهولة ضيقة العطن تحمل رجعية الأفكار محتبئة تحت ستار كشف من قشور العلم البارد المدعى، ومظاهر الوقار المصطنع تخدع الناشئين هناك بمؤلفات مهلهلة مسمومة تنشر فيهم باسم الأدب الذي يتعشقه الشبان، فلا يكادون يرون رواية - مهما بلغت من الانحطاط - ألقت وكتب على زاوية غلافها العليا من اليمين أو من اليسار: « أول رواية صدرت بالحجاز » حتى يخلبهم ذلك البريق الزائف فيندفعون اندفاع الظامئ خلف السراب فإذا هم أمام قيعاء تعوى فيها ذئاب الخواء والنضوب، لا رحمة فيها من أدب ناضر، ولا جودة ولا رواء من علم صحيح، وإذا بهم وهم يقرأون هذين التوأمين أمام تل لا قيمة له في ميزان النقد ولا ميزة فيه إلا ترديد أقوال بالية لا تلبث أن تهب عليها رياح الغربة والمحاسبة حتى تهوى بها إلى مكان سحيق أو واد من العدم لا مبعث منه.

وهمة نتطوع بها في آذان النشء الكريم من إخواننا شباب المدينة المنورة النابت، وهي ألا ينخدعوا في وطنيتهم الحجازية العربية التي يجب

ألا ترضى لنفسها التدهور إلى مجار تجرى فيها مثل هذه المنتوجات العقيمة من الأدب ، التي إنما صلتها بتمبكتو ألصق منها بهذا الدم العربي الحر يجرى في عروق أبناء « الأنصار » الحقيقين فيكون تفكيرهم صافيا وهاجاً يفيض عليه أدب النبي صلى الله عليه وسلم وآداب صحبه الماجدين فلا يلبث أن يبنى صرح النهضة الفكرية في المدينة على أساس قويم يسقط دونه ما تقذفه شواطئ أفريقيا وصحارها من عقم العقول وفساد الحاصلات ! الحاصلات !

ثم نكر - بعد هذه الهمسة - راجعين إلى بيان ما هو السمو في الأدب الذي أعجب بعض شبان المدينة نبيله فعزوا انفسهم بترديد ذكره ومطالبتنا به فنقول لهم إنه هو الفن الناضج الذي تذشّه دراسة صحيحة واطلاع واسع وملكة خصبة لا يشوهها العجز ولا يهددها الضعف والاضمحلال ، هو القدرة الهائلة على امتلاك ناصية التعبير الجليل الذي يضع الجمل مواضعها الواجبة من أساليب الكلام ، ويحملها أحمالها الصحيحة من جميل المعاني ومتفوق الأغراض المكيّنة التي يكتبون غايتها أدياء الأدب وقصيرو المدى وسمارة الفن ومنقصو العقول ؛ هو الاتزان في قوى النفس وملكاتهما ، هو إدراك الفرق بين ملكة الخيال وصناعة الاستعارة العتيقة ؟ هو الاحساس الواعي في فن الرواية الذي يميز خصائص القصة تميزاً جيداً ، ويعرف ما هي الأسس الفنية التي إن أخطأها أو جهلها كاتب الرواية فإنما يخطئ أو يجهل حقيقة الفن برمته ، وفي غير فن الرواية الذي يستلزم من قضايا الجرى على قواعد الحقيقة غير ما يستلزمه ذلك من الجرى على قواعد المثل الأعلى في الحياة التي تشملها القصة ، إذ القصة كما قلنا تتطلب أن يحدد لها الكاتب موضوعاً اجتماعياً قوياً أو يديرها على الدعوة إلى فكرة أو خلق أوعقيدة يراها هو ويشاركه

القدر الكافي من القراءة في اعتبارها شيئاً له صلة تامة بالمثل الأعلى الضارب
في صميم الحياة الانسانية قبل كل شيء .

هذا هو سمو الأدب ، فليطلبه في مواضعه شبان المدينة الذين لا نحب لهم
أن يتأثروا بضعف عبد القدوس وتهويشيه ، والذين يجب عليهم أن يصفعوا
هذه القصة وما إليها من حثالة هذا الذهن الجامد اليباب ، وأن يرموا بها
إلى مهواة من مهاوى الجحيم حيث تتكدس رمم الأفكار البالية والاوهام
الخليعة والتسكع في التعبير المضحك والمعنى المزدهف ، وحيث يتطهرون
في نهر الوطنية العربية الحجازية التي ما زال يكيد لها هؤلاء السود المستخرون
ممن لا يعلم إلا الله مبلغ صلتهم بالأبالسة والذين يريدون أن يمتطوا اعجاب
شبابنا الجاهل إلى حيث يتسلقون في الأدب الزائف درجة الشهرة الكاذبة
فيمثلون بين الشبان أدوار الحواة والمشعوذين لا خدمة للعلم الذي هم أبعد
أبناء آدم عنه ، ولا رغبة في الفن الذي تنطمس معالم الدنيا قبل أن يتعرفوا
إليه ، ولكن قضاء لغرض يضؤل ويعظم حسبما هو في نفوس أصحابه
من الطموح الوضيع .

ثم نجيب ذينك السكويتين الخدوعين اللذين ركب عبد القدوس
الشنقيطي كاهليهما للدفاع عنه والنقيق معه عند أقدامنا نقيقاً لم يكن له
من قوة الصوت ما يوصله إلى أسماعنا ، بأن الأدب في غير ما أتياه وغنياً
به من الموقف الرفيع الذي وقفاه ، فهما يزعمان - ويزعم مسخرهما على الأصح
أننا تحاملنا على شخصية المنقود ، ولو علما أن هذه الشخصية التي يفتحان
فهما باسمها أضال شخصية في تقديرنا لا حساب لها عندنا إن حسب

المسكينان لها الحساب ، ولسنا بمغرورين بما تبديه من أشباح العلم الأبرار المدعى
الذى ليس آفته النقص فحسب ، ولكنه المسخ والتدهور فى صميم حقيقته ،
بل إنه هو الحياة صرف فى ترقيعها الجهد الجهد وخرج منها صاحبها بما فضحه
لدى الكاتبين ، وسينفضح أكثر كلما بدا له يوما أن يرفع رأسه فى مجال
الفن الذى نجزم أنه لن ينال منه حتى المقدار الذى ناله من سبقوه من بعض
شبان المدينة الحديشين كعبد العزيز ضياء الدين ، الذى تتحدى مقدرته بأن
يجاريه فى مثل قصة « الابن العاق » فإنه يجب أن يتصاغر عبد القدوس هذا
أمام شبان كمن ذكرت لم يخرجوا عن أنهم مازالوا فى مستهل طور التكون
الفنى ولكنهم فاتوه فى إدراك حقائق الفن ومراميه .

أما ما ظنه فينا الهزأتان من نقص العلم فإنه لا يتاح لأمثال هذه المدارك
الكلية أن تحس بروعة العلم الصحيح ، وحسبها مسائل ضيقة من قشور
يسميها هم وأمثالهم بالعلم فى المدينة ، وما لهذه المدارك والعلم والأدب
والغيرة التى قدرها لنا قبلهم من ليس له بنا صلة من خارج جزيرة العرب
من يحملون أضخم الألقاب العلمية والاجتماعية ؟ وأقرب مثل ما نشر عنا
فى الأسبوع الماضى بقلم صاحب العزة العامرى بك نقلا عن مجلة النهضة
المصرية ، فإنه قدى فى أعين أعماها الجهل والتعصب والطيش ، ولا نزيد
أن نوسع الشقة فنستشهد بما نقله عن كتابنا « خواطر مصرحة » العلامة
العبرى الدكتور طه حسين فى أحد أعداد مجلة الهلال قبل أشهر مضت .
فى مقال افتتاحى عنوانه « الحياة الأدبية فى جزيرة العرب » ، ولكن هؤلاء
لا يؤمنون وأنى بالإيمان العلمى أن يلج إلى صدر المتعصب الغر الذى لم
يترب تربية علمية ولا أدبية إلا فى حد سىء معروف .

وآخر سهم نصميه إلى هؤلاء الضعاف المرزوين في عقليتهم هو إجابتنا
عن رميهم لنا بالتستر خلف الاسم المستعار خجلا! بأننا ما عرفنا الجبن
قط ممن يقام لهم وزن، فهل من المعقول أن تنزل إلى الجبن أمام حشرات
الآداب؟ على أننا قد صرحنا باسمنا مرارا في ذيل هذه التأملات حتى لم يبق
من لم يعرفنا في طول البلاد وعرضها وخارجها.

وهانحن أولاء نعيد الوعد بأننا لا نزال عازمين على نقد قصة التوأمين
وغيرها، ونقد كل ما يستجد بعدها من ألقاق تنشر باسم الآداب، رغم مرامي
به الدهر تلك القصة من الانزواء والموت، تقريرا للسخفاء الذين أودى بهم
الوهم أنها شيء له معنى في عالم الآداب الصحيح، وإن النقد الصارم لبالمرصاد
لا سيما لمن يخفيه النقد.

الفداذة فى الشاعرفة

لكل مظهر من مظاهر العقول البشرية رسالة يحملها الى العالم يسلك فى سبيل أدائها مناهج واضحة لا تختلط بغيرها إلا لتزىد الأداء قوة ، فللعلم رسالة ، وللفن رسالة ، وللأسفلة رسالة ، وإذا كان الشعر أروع الفنون الجميلة وأعظمها أثرا فى النفس الإنسانية وألصقها بالحياة كما يقول أحد فلاسفة الانكليز ، فإن رسالته الى العالم إذن هى رسالة الفن نفسها وما رسالة الفن إلا إلهاء ثروة الحياة فى النفوس ، وشغل مصباح الفكر الإنسانى ، وشرح حقيقة الجمال ، والصعود بالآدمية الى أفق سام من آفاق الخلود .

أو ليس الشعر فنا دافقا ؟ وهو أشبه الأشياء بالنهر المنبعث بقوة وصفاء ؛ منبعه ومصبه الحياة ؟ ومقياس الشعر الصحيح أو الشعر الحى هو أن يغمر نفسك بالإعجاب ويحفزها إلى افاضة الثناء على الشاعر حين تقرأه أو تفيض اليه وأنت مسترسل فى عالم آخر من عوالم النفس التى تقدر القوة والبراعة وتؤمن بعظمة الصدق وتأثير الفن ، وهو ذلك الذى يستشف الفكر من وراء نغماته وموسيقاه أجمل معابر النفس الإنسانية إلى آفاق السكالم البشرى القريب من عرش الله ، وهو ذلك الذى يعطيك نظرة خاصة إلى جمال السكون وجمال مافيه ، وتعبير موجز هو ذلك الذى يؤدى رسالة الفن غير منقوصة كما تشاء عبقرية الشاعر وإحساسه بالحياة ومافيه من كنوز ، وكما تشاء التفاتات نفسه ويقظة عقله إلى حقائق العالم وطبائع الأشياء ، وهذا هو الشاعر الفذ .

نعم هذا هو الشاعر الفذ ، وهذه هي معالم الفداذة في الشاعرية تتلسمها
 في كل شعر يصنع بك ما قلناه آنفا أو ما يقرب منه حتى يدعك تستشعر قوة
 الحقيقة وروعة التصوير وإخلاص النفس في أداء رسالة الشعر . أما ذلك
 الشعر الذي تقرأه فتمضى فيه وأنت أنت لا يستهويك شيء من فكر ولا يلج
 إلى نفسك إحساس جيد بمظهر من مظاهر الحياة ، ولا تحس أن فيه روحا
 فعلا يمل عليك الحقيقة أو يندبك من الجمال ، وأما تلك الشاعرية الباردة
 الميكانيكية التي لا شأن لها بغير الأوزان والقوافي والمحاكاة واستخدام
 ألفاظ اللغة تبعاً لنواميس القافية ورنه النغم ومساوقة الوزن ليس إلا
 وليس بعد هذا من وراء ناتجها إلا الخواء والشعوذة وتلفيق المعاني العارية
 وتكريرها والجري وراء المبالغة وشتى الاحالات التي تفسد جو الأدب ، ثم
 تلك الآداب الغثة التي لا فكرة فيها إلا إبداء ثثرة يحسبها قائلها زينة النفس
 الشاعر وأثر جمال الفكر الإنساني ، وتعالى النفس الشعرية أن تلفظ
 بالثرهات وتنزه جمال الفكر الإنساني أن تكون آثارة سفسطة الأقاويل
 الزائفة ، أقول أما تلك وهذه من كل أنواع الهرف المصطنع فإنما هي آداب
 ميتة وإن خلع عليها الكثيرون ألقاب الهول والتفوق ، واعتبروا قائلها
 أفذاذاً وعباقره بغير أن يقيموا وزناً للفداذة الفداذة والعبقرية كأن الفداذة
 والعبقرية عند هؤلاء ليست إلا شيئاً عادياً مباحاً يتناوله المرء بطرف اللسان ثم
 يمنحه من شاء وشاء له سخافة النظر أن يمنحه إياه بمثل ما يعطى الواهب
 المقلال أبسط الأشياء لمن يصادفه في طريقه أو بمثل ما يستعمل الإنسان
 ألفاظ المجاملة مع الآخرين .

أدب التقليد

لا ريب أن معظم ما قرأت من آثار الآداب العربية بعد العصر العباسي هو آداب تقليدية وصور منسوخة من أصول قديمة لا صوت فيها للعقل ولا لون للابتكار ولا مساحة للعواطف الحارة التي تنبع من قلب الشاعر فتفيض على قلبه شعرا حيا يستوقف المفكر أو مؤثر الابتكار في الفن . لا ريب في ذلك وإن حاول بعض المقلدين أن يزيفوا هذا النوع من ذاك الأدب الغث الذي لا تقوم عليه نهضة أمة ، وهذا بديهي ، والذي لا يسمح للأفكار الحرة أن ترى فيه صورة الحياة القوية والذي لا أدرى — وربما أدرى — هل كان أصحابه من ذلك الصنف من الأدباء يفهمون أن الأدب روح عظيم يسرى في أذهان الأمة فيرفع درجة تفكيرها ويجدد فيها نشاط النزعة إلى النهوض في اتجاهات السير البشري ، ويهز منها جوانب النفس للقيام بما خلقت له من الأعمال العالية المتشعبة ، ويوسع فيها دوائر التفكير الضيقة فتتنظر إلى الأشياء بعيون جديدة ، وبالأحرى بعيونها الطبيعية لا بعيون أسلافها ؟

أقول هل كان يفهم أولئك الأدباء الناسخون هذا المقدار في فن الأدب ، وأن هذه مهمته ، وإني إلى جانب السلب أميل مني إلى جانب الإيجاب ، فأستطيع أن أقول إن تلك الأمم التي كدسها التاريخ أكواما من البشر لم يكن يخطر على أذهان أفرادها الذين كلّفوا أنفسهم مؤنة الأدب أن الأدب فن حي وخاز مؤثر يغري الأمم بالاحتفاظ بالحياة العالية

ويدفع بالأذهان إلى الاكتشاف والامتزاج في نظم الكون . وإلا فأن
نرى موضع تلك الفكرة في آدابهم نظماً ونثراً ؟ وأجزم أنه لم يكن حادى
الأديب إلا محاكاة العرب والمولدين ومن بعدهم ، وهو إلى زمان قريب
كانت هذه خطته الساذجة ، وحسبك أن تقرأ للبكرى قوله :

أديار مى تذكر فدموع عينك تقطر

ولم يكن في الحياة التى تحيط بناظم هذه الايات ما يشبه هذا إلا التصور ،
فالناظم يعيش في مصر فما له وديار مى ... لولا التقليد الأصم لشعراء العرب
والمجاعة العمياء للأسلوب الفكرى المتمثل في أمثال قول زهير بن أبى سلسى
المزنى الجاهلى :

أمن أم أو فى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمشتم

وفى ما يشبه قول طرفة فى مطلع معلقته :

خسولة أطلال بركة ثمهد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد

وفى ما يجرى مجرى قول البوصيرى مثلاً :

أمن تذكر جيران بنى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

على أن نفس هذا البوصيرى الذى قلده صاحب البيتین المتقدمين هو
مقلد أيضاً لما ذكرنا من الأسلوب الجاهلى . فلم ياقوم هذا الركود والتعطيل
والإسفاف إلى ما لا يرضى الطبيعة ؟ نحن فى غنى تام عن هذا الهراء وذاك السخف .

والتهويت إلى منحدر النفس المستسلمة، فهل لا تعرفون كيف تكونون شعراء إلا إذا قلتم العرب في كل شيء، وعشتم بأفكاركم تلك العيشة البدوية فذكرتم ديارى و«منعرج اللوى» و«جاذر رامة» و«ظباء المنحني» و«سفع العقيق» والنقا والحزامى، وسألتم عن الركب ولا ركب، واستوقفتكم حادى الأظعان ولا أظعان، وندبتم الديار ولا ديار، واستندركم الدموع ولا دموع؟ أو تقدمتم حياة العباسيين فعاقروتم في الشعر الصهباء، وصاحبتم الدنان، ومدحتم ورثيتهم، وبعبارة موجزة درتم حول التاريخ تترسمون خطا أولئك، وتسمون أنفسكم أدباء الوقت ونوابغ الشعر، وتكلفوننا الإعجاب الميكانيكى بما تقدمونه للثقافة الأدبية من الحشالات، ويعلم الله ان لاشيء من هذه الآثار الميئة يلامس قلوبنا فنعجب، وإن تلك إلا قصارى الأفكار المكدودة والقرائح المتهافة فهى فى جانب والشعر فى جانب آخر.

وبربك قل لى أيها القارئ: أى شعر حى تراه من قول شاعر عصرى:

أنادى الربع لو ملك الجوابا وأفديه بنفسى لو أجابا

ليس كل ذلك إلا وقفا قسريا لسير الأذهان نحو حياتها المنتظرة؟ وهدم أهوج لهيكل الأدمغة التى يجب أن يتولد فيها حب التقدم والتحرر والتأسيس؟ وتسميم للعواطف والقرائح لا تجيزه قوانين الطبيعة؟ ألا نزال حتى الآن فى خرائب بابل حيث تتجاوب أصداء الاهوية وتتناقص غربان الكهوف، وتعزف جنان الاوهام؟ أم لا نزال حتى الآن كما كان آباؤنا نطارد «وحش وجرة» و«نقطع واديا بكجوف العير» و«نضرب أكباد الإبل» ونقصد فلانا وفلانا من ملوك العراق وأمراء الشام وعظماء الحجاز؟ أم لا نزال حتى الآن نزور ليلى فى خباياها خلسة، ولبنى بين بيض السيوف

ومشتجر القنا، ونهادى دعدا بأطباق التمر، ونعابت أم عمرو لأنها صبت عنا الكأس، وكان الكأس، مجراها اليمين؟ لكل أمة دور انحطاطها الذهني ودور انتعاشها ثم صحوتها، ونحن وقد مضت أدوار علينا كنا نتخبط فيها بين الانحطاط الذهني والانتعاش المشلول قد جاءنا الآن وقت أظنه هو المدى الفسيح الذى يجب أن تنفس فيه منا اليقظة الذهنية وتصحو معها عقولنا وقلوبنا، ونستخدم دم الحياة بحرية التفكير، وننظر بأعيننا الطبيعية إلى الأشياء أو نخلع فكرة الأدب إذا كنا لا نعرف وظيفة الأدب .

هذا ما عن لى من الملاحظات على الأدب الشائع فى أقلام شعراء شهيرين يشار إليهم بالبنان فى عصرنا الحاضر، وهذا ما يدعى أسائل نفسى مرة أخرى: هل حمد الذكاء فى رءوس شعراء العصر، وهم نوابغه القديرون؟ أم هل يستهين هؤلاء النوابغ بقوة الابتكار فيدعونها تنسحق هذا الانسحاق الشائن بين خرائب بالية من الأساليب والافكار؟ أم هل يتصورون أن الادب ملهاة من ملاهى الحياة يجوز أن تخفر فيها ذمة الفهوم؛ وهل يصح أن يكون مثل هذا الادب صورة صادقة لأفكار أبناء هذا العصر وحياتهم؟؟ كلا! فأما المدح فى الشعر فإن لنا فيه فلسفة تتلخص فى أن الشاعر الذى كل نسجه مواجهة الآخرين بالملق والتمدح ليخطئ تماماً وجهة الفن الثابتة، ويتجافى عن جوهر الشعر الذى يرفع من شعور الأمة إلى مستوى راق من اللياقة أو التفوق . فالمدح والتمجيد والخذلقة ليست من المقاصد المشروعة فى مذهب الشعر الحى والفن البانى المدعم، إذ كل شخص عادى أو أقل من العادى لا يعوزه أن يقول لكل واحد: أنت الرجل الذى ليس مثلك رجل، وأنت الذى ينعدم النقص عندما يقترب من ذاتك العالية

المقدسة، وهذه المعاني وأمثالها هي التي يقدمها الخادعون والغشاشون عادة إلى من يريدون أن يموهوا عليه حياته ويتركوه في خضم من الخيال يغطي موضع اليقظة والتنبه من احساسه، وإذا نظرنا إلى الفصائل الحيوانية فإننا نرى أحقرها وأتبعها وأقلها قيمة هو الذي يتمسح بالإنسان ويتملقه ويتحكك فيه ابتغاء جزاء ضئيل بينما العظيم الممتاز من هذه الفصائل لا تصدر عنه إلا القوة والاعتزاز والصراحة والمقدرة، وقد نبت في علم النفس أن هذه الصفات الخلقية الأخيرة هي التي تنتج الطيبة والإخلاص والوفاء والشهامة، بينما لا تنتج صفات التمسح والتحكك والحذقة والاتضاع إلا الخبث والرذيلة والحسد والنذالة والغدر. فالأسد القوي الصريح الشجاع العزيز لا يغدر ولا يخون، ولكن الهر المستخذي الوضع الجبان، يسرق ويختل، ويخرج برازه فيدفعه.

والأسد لا يطلب منك الإحسان والمكرمة، ولكنك إذا فاجأته بها قبلها منك بأحسن ما يجب، واحتفظ بها وجازاك عليها جزاء الشهم الأبى القادر، أما الهر فإنه يتسول إليك فتطرده فإذا قدمت له شيئاً التهمه وذهب ينتحى جانبا من المجلس يضطجع فيه ويموء.

وفذلك الأمر عندنا في الأدب هي أن الأدب ليس بلهو أو زخرف من القول تزجي به أوقات الفراغ وتراد تحت اسمه الأفكار الكلية على الترس، والذكاء الرخيص على الظهور الأجوف، ويطلب به أن تتحرك الأشداق بالقراءة ليس إلا، وأن تزيع النواظر بين السطور، وأن تتسلق الشخصيات الضئيلة إلى مراكز الأدباء البارزين بكتابة السطر لاصلة بينها وبين النفس المحسة والعقل المتبصر والقلب الفياض إلا ما يدس بين

سطورها من كلم بارزة ضخمة لا رابطة بينها ولا وثاق ، كلا ليس الأدب
شيئا من هذه المظاهر الصماء ولكنه الشعور الممتاز !

وإن شئت فقف هنا لا تنقص ولا تزد ، ولكنك جدير أن تعرف
أن هذا الشعور الذي أقصده إنما هو شعور عبقرى مملوء لا ركركة فيه ولا
تردد ولا عماية ، بل قوة نافذة ماضية صريحة ، ثم من وراء هذا الشعور
تعبير مصور قدير يتعالى عن الطبقة التي تشارك الدهماء في مداركها
وفي التفاتات أذهانها .

الأدب الكاسد

كنت في مزدحم الناس يوم أن احتشد الشعب في ساحة الثكنة للملاقاة جلالة الملك عند رجوعه من نجد إلى جدة في إحدى جيئاته إليها ، وكنت في فناء السرايق الكبير الخاص لاستقرار جلالته ، وكان لخط الدهماء والمحتفلين واكتظاظ المكان بهم على غير نظام حائلا بيني وبين رؤية الملك وسماع الخطباء الذين حيوه . بالرغم من تلك الحيلولة استطعت أن أسمع بعسر بعض أقوال الخطباء وان كنت لم استطع الا حاطة بكل ما قالوه . وفي ذلك المعترك الفوضوي ، وبين تلك الجثث المسكدسة حمل الأثير إلى سمعي كلمة « القدح المعلى » في إحدى خطب الاحتفال ، فأرهفت أذني وفهمت أن مدار الجملة التي نطق بها الخطيب على أن الأمة الحجازية أو العربية نالت أو تنال بفضل جهود جلالة الملك المفدى ابن السعود شأوا فائقا في الحياة سماه الخطيب « بالقدح المعلى » كما كان يسمى العربي قبل الإسلام إحدى خشبات الميسر ، وهي التي لها الأنصبة الفائقة من لحم الجزور عند الاقتسام . فالقدح المعلى إذن خشبة تاريخية لم ولن تنالها العرب على يد جلالة ملكهم ، ولا هم يريدون أن ينالوها في زمن من أزمان الحياة . القدح المعلى خشبة عربية مات عنها أصحابها وخلفوها إرثا لأبناءهم ، وكان الوصى الحامل لذلك الإرث جيش من العلماء والأدباء أفراده الميداني والزمخشري والجاحظ وبديع الزمان والحوارزمي وأبو علي الفارسي وابن جني الخ . فعلى يد هذا الجيش وصلت إلينا متروكات العرب ، وفيها « القدح المعلى »

و «القدح المنيع» و «جدح جوين من سوق غيره» و «أطرى فأنك ناعلة» و «وجد تمرة الغراب» و «أعز من بيض الأنوق» و «وشبعة فيها ذئاب ونقد» و «عش ولا تغتر» و «أفرغ من يد تفت اليرمع» وما إلى تلك التعابير التي ليس فيها من جملة تحمل رمز حياتنا الحاضرة، وإنما تصور لنا عيش أولئك العرب في باديتهم وهم لا يتخيّلون إلا الميسر والقدح والسويق والجدح والاطرار والانتعال والتمر والغراب، ووشائع الغنم، وقت اليرمع وقت الفراغ، ومراعى الإبل، وما يمت إلى تلك بنسب المشابهة أو الجوار، ونحن عرب في اللغة فقط، ولسنا عربا في المعيشة والتفكير والخيال، لأن لنا اليوم حياة وثقافة وأدبا غير حياة وثقافة وأدب العرب الأولين ومن من الأمم تحيا اليوم كما كان يحيا أجدادها بالأمس؟

لقد تطور كل شيء في الحياة، ولا يفهم الرجعيون أن التطور هو الانسلاخ من الماضي بما له وما عليه، وإنما التطور هو المشى برزاة واهتمام في ميدان الحياة الفسيح للوصول إلى أرقى حالات الكمال الحر، والكمال الحر هو النهاية الخفيفة التي يهرب من طريقها الرجعيون أنصار «القدح المعلى» و «الجدح» و «السويق» ولكنها بالرغم مما يصنع الرجعيون نهاية كل حي حساس يعنى بالحياة وتعنى به الحياة، وما «القدح» و «الجدح» و «فت اليرمع» إلا أوراق لا تجدى في مكتب الحياة قد استملتها أفكارها ثم مزقتها وألقت بها في سلة المهملات، والويل لمن يلتقطها ثانيا. أنا لا أنكر فصاحة الأمثال العربية، ولكنى أنكر صلاحيتها في الأدب الحديث، وما قيمه الفصاحة إذا جاءت في ثوب لا يوائم حياتنا الفكرية، حياة الصور الفاتنة وشتى المبدعات؟ وما قيمة الطنطنة في تلك التعابير ونحن نهرب

من وجه الطنطنة والزخرف اللفظي في الأدب كما يهرب الرجعيون من نهاية
الكمال الحر؟ ورب معترض يتشبث بقشور الكلام يقول إن أرقى اللغات
الحية الأجنبية لم تستغن عن الأمثال فأقول: ليس هذا سبيلى ولست
لأج استعمال الأمثال، وإنى استهجن فى كل شىء، وليس فى الأدب
فقط، فكرة التأثر البارد والجود عند الأشلاء غير الصالحة للبقاء، فالأمثال
العربية فيها ما هو أثرى بحت يصور حادثة خاصة لا يوجد بين أجزاء
حياتنا جزء من أجزائها، وهى حيثما تراها وتسمع بها تجد قائما حولها
شبحا من البداوة الماضية بكل ما كانت تحمل من شأن بالية، وأخية تحيط
بها التوى، وجذل منصوبة تتحرك بها الإبل الجربى، وعذق ترجيها حراس
الثمار إشادة بمالها من سمو المكانة عند أصحابها، وإماء حافيات الأقدام
أو ناعلات، حاملات عصى الرعاة، يهروون وراء الاغنام، ثم ما شئت
بعد من آثار عيشة الحل والترحال والارتياح فى صحراء بلاد العرب أو حول
سد مأرب أو ما بين تدمر والفرات.

وليس فى كل ذلك عيب أو نقیصة لولا أن الرجوع إلى ذكره فى الآداب
واستعماله كأدب عصرى تعمية على التاريخ، ودلالة على العجز فى التصرف،
ومعاكسة للخطط الطبيعية المثلى فى آداب الأمم الحية التى تحس بشخصيتها
مستقلة. ونحن ألسنا بالأمه الحية التى لها شعورها بنفسها واعتزازها بحاضرها،
أو كما هو الواجب شعورها بالأمه وتصويراتها لتلك الآلام ومعالجاتها، والخوض
فى غمار حياة جديدة هى الحياة الحاضرة بحسناتها وسيئاتها، والنظر فى الأفكار
المحتاطة بنا والتى تتكون منها تلك الحياة والعود إليها بالنقد والتحرير واستبقاء
الصالح وطرح المتداعى؟ وبالإيجاز التغلغل فى أعماق الحياة نقدا وفهما

ومعالجة ، فالأدب نقد الحياة كما يقول كبار المفكرين ، وأعلى الأقل ألسنا بالآمة التي لها شعور وإرادة يحفزونها إلى إرادة الحياة ؟ نعم إن اللغات الحية لم تهمل أمثالها القديمة ، ولكن أحرار الأدباء الحساسين فيها يلقون عليها صبغة الحياة الجديدة في أقوال تسرى فيها روح الأمة وتلبس حاضرها بديقه وقدرة ، ونحن لا نطلب من الأدب العربي زيادة على ذلك القدر.

نظرة عامة في السياسة العالمية

يلاحظ المتتبع لمجرى تقلبات السياسة في هذه الأيام ، وتطورها — طردا وعكسا حسب ما يصادفها من ظروف الحوادث والمناسبات — أن العالم انقسم — أو بعبارة أخرى: أن في أذهان ساسة الغرب ومفكريه فكرتين أساسيتين تسودان التفكير السياسي الأوربي وتكيفانه بما يرى المطلع ، وتزجان بساسته إلى التصادم والتوازن نارة، وإلى التلاؤم والتساهل تارة أخرى . وان في تينك الفكرتين سياستين هما السعى إلى السلام العالمي ، والتسلح لحفظ المكانة الاجتماعية ، ومن العجيب بل من المدهش جدا كما يلوح مبدئيا ، أن ترى أقطاب السياسة في انكلترا والمانيا وفرنسا وإيطاليا ، بل في أمريكا التي عرفت قبل الحرب العامة بميادها السياسي وبعدها عن أغوار السياسة وأهوالها ، يلونون مقاصدهم بألوان الحاجة والظرف ، فالقطب الذي يذيع الراديو خطبه السياسية الرنانة في تمجيد السلام، وتنقل البنا صحف الخارج كلماته الرائعة ومواقفه الجليلة للدعوة إليه لا يستحيل عليه أن يقف في غد ذلك اليوم أو بعد غده موقفا حماسيا مؤثرا يلهب فيه عواطف الشعب ويهيب بأجناده إلى اتخاذ الحيلة الدفاعية وتقديس وسائل الحرب ، ويضرب للقوم على أوتار الوطنية والقومية حتى يستنفز مشاعر الأمة ويستثير فيها مكامن القوة والكفاح، للذود عن حدود الوطن المقدس بحد الحسام وبغوه المدفع وبأزین المنطاد إلى آخر ما أبدعته أوربا من ضروب الوسائل الدفاعية .

والأكثر من هذا دهشة أن يغدو السلام والدعوة إليه ضرباً من السياسة العالمية النفعية لا مبدأ مقدساً من مبادئ الاجتماع ، وحقائق الحياة ، كما كان يقول عنه أولئك الأقطاب السياسيون أنفسهم ، حتى لكأنما فكرة السلام فكرة وقتية ينادى بها على الجماهير لقيادتهم إلى مقصد سياسى معلوم ، أو للسيطرة على أفكارهم ريثما يتم أمر قد شاءته هذه السياسة العالمية ، أو لكأنما هذا العالم شيء لا يستحق القداسة المنتظرة من أعمال أولئك الأقطاب القابضين على تصرفات الأمم ، قبضة اللاعب القدير على صولجان البليارد يعث به في تلك الأكر المنتورة أمامه على المائدة يمددها يمنة ويسرة ويصرف مسيرها إلى حيث تشاء له مقتضيات اللعبة المنظمة .

ماذا أيها الساسة؟ أيجب للعالم أن يتشائم في هذه الآونة لما تبديه الأفكار القديرة المتصرفة في مصير الشعوب ، وأن يلهو بما قاله رسل السلام ورجال الواجب في أحيان مختلفة ؟

الحق « أن السياسة ليست علماً موضوعاً له أصول ثابتة وقواعد معينة ، بل هي مرهونة بحكم الأحوال ، وأن الوقت يعالج أحياناً مسائل خطيرة تعجز جبايرة العقول عن معالجتها قبل حلول الأوان الطبيعي لحلها ، فالسياسى الماهر هو الذى يعرف كيف يعطى الزمان حقه حتى إذا فعل الوقت فعله عرف كيف ينتهز الفرصة ويستفيد من الانتظار فى الأوان المناسب » .

نعم هذا صحيح ، وهو ما قاله السياسى الالمانى الدكتور « شترزمان » رجل الواجب كما كان يقال له ، وهذا القول على صحته ليس فى مراميه أن تتقلب

المبادئ السياسية تقلب الثعالب ، ولكن من أهم مراميها ، ما قاله هذا السياسي نفسه في حديث له مع أحد الصحافيين : « انى أظن انكم ترون معى أن الواجب يجب أن يقدم على كل اعتبار آخر فى هذه الحياة » .

هذه هى الحياة الحقيقية الناصعة التى لا مناص منها لزعم أو سياسى ، فهل انقلب معنى الواجب فى هذه الظروف إلى سعر تجارى من أسعار البورصة يهبط ويرتفع فى غرابة المفاجأة ، وشدوذ المقاصد ، وغموض المواقف تسميه السياسة بأسماء مختلفة لا ترعى فى سردها لغة الواجب ولا لغة الحياة ؟

ذلك ما لا ندرى تعليله ، ويسوؤنا كما يسوء العالم أجمع أننا ندرى انه أمر جار واقعى يتخبط فى نتائجه كل هضم الجناح ، فاقد تصريح المصير ، وعسى أن تفاجئنا السياسة العالمية اليوم أو غدا بما يستدل منه على تغيير هذه الخطة أو الصيرورة إلى معنى الواجب الحقيقى ، وإلى جعل فكرة السلام مبدأ مقدسا ثابتا لا لونا وقتيا من ألوان السياسة اليوم .

وإذا صح ما قرره علم النفس والفلسفة من أن التلون فى الأخلاق العامة ضرب من ضعف الإرادة وتهافت المملكات الذهنية فإننا نخط بالأقوياء آمالا جيدة نقول عند تحققها : إلى حيث ألقى أيها الضعف المير والالتواء الشاذ ، والتهافت المضطرب ، ونرحب عندئذ بالقوة النفسية الثابتة التى تتمثل فى سياسة التفكير الصحيح فإنه :

إذا جاء موسى وألقى العصى فقد بطل السحر والساحر

فلسطين المنكوبة في حريتها^(١)

قد علم المطلعون على الحوادث أنه في أوائل السنة الرابعة للشوب الحرب العظمى، أو الحرب العالمية، صرح اللورد ارثر بلفور، وزير خارجية الحكومة البريطانية في ذلك العهد بتصريحه المشؤوم، القاضى بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، ومن ذلك العهد أخذت هذه البلاد تدخل في دور شقتها الروحي الذي مآله الإفضاء بها إلى هاوية من فقدان حريتها وكيانها وتدهورها إلى عالم مظلم من عوالم الانعدام والبعد عن حياة الأمل في استقلال الوطن وتكوين حرية الذات، ونيل المتعة النفسية من حياة سياسية مجيدة تحياها الأمم الأخرى.

ولئن كانت نكبة الأمم الشرقية عامة والعربية منها على وجه خاص تعد من أعظم نكبات الأمم التي تن من ويلات الجشع الاستعماري والضغط غير المشروع فإن نكبة فلسطين بهذا التصريح الذي جرت عليه السياسة بالفعل هي من هذه النكبات الهائلة في الصميم، إذ الخسارة فيها مضاعفة مزدوجة: حرية تفقد، ووطن يغتصب.

إن فلسطين الشهيدة تنكب من جراء هذه المعاملة بهذه النكبة الهائلة في كرامتها ووجدانها وكيانها منذ بدأ ذلك التصريح — أو ذلك الوعد —

(١) نشر هذا المقال افتتاحية للعدد ٨٣ من صوت الحجاز فنقلته عنها جريدة الجامعة الإسلامية افتتاحية لأحد أعدادها أيضاً.

البلفوري يأخذ في الظهور عمليا في خلال هذه السنوات الست عشرة التي مرت عليه من عام ١٩١٧ إلى الآن ، وتعاني ما تعاني من قسوة الظلم المرير والويل المستمر ، ولا من رحمة عند هذه السياسة القاسية ، ولا من نظرة عادلة ينظرها الحكم المسيطر على فلسطين ، فترد اليها روح الامل وتنعشها قليلا من ذلك الإغماء .

انقضت تلك الصاعقة العنيفة على رأس فلسطين الشقيقة العزيزة والقطر العربي الكريم فناءت بحملها ولاكنها جالدت الخطوب وقاومت الإرهاق ومضت تعالج بلاءها في دأب تاريخي حفظته الأيام وقدمته الشعوب ، شأن المجاهد الباسل الذي يقول مع غنثرة « ليس الكريم على القنا بمحرم » والسياسة تعالج خطتها بدورها في دأب مسيء مؤلم يستفز كوامن الشعور ، سجلته كذلك صحف التاريخ كعنوان على مواقف الغرب نحو الشرق المجيد الحر .

إن فلسطين بلاد عزلاء أيتها السياسة المسلحة ، وليس من النبل في شيء أن يسيء المحارب المسلح إلى خصم أعزل لا يقوم امامه ، وليس يمكنه في طبيعة التفكير المنطقي الصمود له

ألا فليكن بلفور عدوا للعرب أو لفلسطين ، أو سياسيا نفعيا مجردا لم تزوده الحياة بقلب الرجل النبيل المحس ، أو مخلصا لبني جلدته اليهود ، اذ هو يهودي صميم ، لا يهمه تحطم الامل العربي المتمثل في أمنية فلسطين وغايتها المجيدة ، ولكن ألا يجب أن يكون ذلك كله في جانب وتكون سياسة الانتداب التي يتغنى الاستعماريون بضرورتها لمصلحة الامة المهضومة في جانب

آخر؟ فإذا لم تفعل هذه السياسة التي قيل عنها إنها آخر عصارة الأدمغة التي تربعت على مقاعد عصبة الأمم في جنيف ما أخذت على عاتقها - في الظاهر طبعاً - تنفيذ من خطط العدالة ، ترى ماذا يقال عن نزعات المتوحشين في الاسكيمو واواسط افريقيا ؟ !

لقد صرخت فلسطين واحتجت واحتج معها العرب أجمعون ، لأن فلسطين جزء من الجسم العربي المتحد في كل أقطار المعمورة ، ولكن بدون أن تظهر جدوى حتى الآن لذلك الصرخ وهذا الاحتجاج .

وقاومت فلسطين كما قلنا أنفا وثبتت في مقاومتها كما يحتمه الدم العربي الحر ، بل الغضب الانساني الواجب حتى زهقت في ذلك أرواح أبناءها وأريقت دماء النجبة من شبانها ولكن للسياسة الجبارة أذنا أصمها الوقر .

جبارة أنت أيتها السياسة عندما تتوالى على مسامعك نداءات الصارخين المستغيثين من أبناء العرب الأحرار المرهقين ، وتكس في « دوسيهاتك » أوراق الاحتجاج والمطالبة بالعدالة من المظلومين والمستضعفين ، لذلك ولصمتك القاتل تجاه مظالم العرب :

جبارة أنت أيتها السياسة !

وغير طبيعية أنت أيتها السياسة ، حيث قد أخرجت من ميزان المساواة العادل في سياسة البلاد التي تشرفين على مصيرها ، هذه البلاد المسكينة التي صبت عليها كوارث الهول من جراء مطالبتها بحقوقها الصريح فخرمت حتى المظاهرات السلمية ، ورد مكاييد التدمير والهلاك عن نفسها في الوقت الذي

تحسين فيه معاملتك لغيرها من البلاد الأخرى ، فهذا الشذوذ والجور
غير المحتمل :

غير طبيعية أنت أيتها السياسة :

وأنت أيتها الأمة الفلسطينية الكريمة : ثقي بالمستقبل المشرق ، فإن الله
ناصرك وإن العرب كلهم كتلة واحدة تشاركك مصابك وتحتج شدة على
ما تجرعه من الغصص والآلام ، وإن التاريخ سوف ينصفك من ظالميك
مادامت في الأمة العربية روح الحياة تدب في أفرادها وجماعاتها إلى أبد الأبد.

وإننا لنكتب ذلك لا بريشة الفن فحسب ، ولكن بريشة القلب العربي
الدامي المتفطر ، ونرفع صوتنا بالاحتجاج ، مشاركين فلسطين في مطالبتها
بحقها الصريح تلك المطالبة العادلة المشروعة ، فما فلسطين بالبلد اليهودي
الصهيوني ، ولكنه بلد عربي خالص تكتظ مدافنه بشهداء العرب ورجالاتهم
الأقدمين منذ أن كانت الأرض أرضاً ، ولن يسمح العرب يوماً لصهيون
الأجنبي أن يتخذ هذه البلاد موطناً قومياً له ولا بناءه .

الصحافة

بحث في مهمتها ومزاياها وتأثيرها (١)

الصحافة ! أجل ننتج بموضوعها صحيفتنا في هذا الأسبوع ، لنقول فيها كلمتنا الصريحة ، ونعطي رأينا للقراء في جوانب من نواحيها ، فهي جديرة منا بمقال نصدر به فيها هذا العدد من صوت الحجاز ، لكي نبرهن عمليا للرأى العام المحترم أن الحديث عنها خطير حتى جدير بالتنويه والاهتمام ، وبأن نضعه هذا المكان من الصحيفة ، فالصحافة ليست بالشئ المستهان به عند الأمم التي تحترم أنفسها ، وتكرز لقوميتها بمكانة مرموقة متفوقة تحت الشمس وفوق الأرض ، فلم يهمل أمر الصحافة إلا الأمم المتأخرة التي لا تعنيها الدعوة إلى حضارتها ، أو التي لا تجد في أحوالها الثقافية والاجتماعية ما يستدعي الدعوة والإعلان والبحث والمناقشة .

قالت الأمم المتحدة : إن الصحافة هي إحدى السلطات في الأمم ، وهم يعنون أنها تعد كسلطة البرلمان وسلطة القضاء وسلطة البوليس ، ويعطيها بعضهم لقب « صاحب الجلالة » تدليلا على مكانتها في الحضارة العصرية عند الأمم الراقية .

وفسر بعض الصحفيين الشعار الرمزي الانكليزي المنقوش على أحد وجهي « الجنيه الانكليزي » والمؤلف من صورة رجل يمتطي حصانا ويده

سوط يلبيه به وهو يطاء بأقدامه حيوانا حقيرا ممسوخا فظيعا ليحطم عظامه ويفتت لحمه ويزهق أنفاسه فيفقد الكيان والحياة، ويلاشى شبحه من الوجود بأن المقصد من هذا الشعار هو أن الرجل الذى يتولى قتل هذا الحيوان هو كناية عن قوة الأمة التى تتولى قتل الجهالة والذائل الاجتماعية والأخلاقية بما لها من روح العزم والنشاط والتكاتف والعمل، وأن الحصان هو كناية عن سلطة الحكومة المنفذة والمسيطر على هذه الحملة الدائمة التى تحملها الأمة على الجهالة والذائل، وأن ذلك السوط الذى فى يد الرجل إنما هو رمز (الصحافة) التى هى آلة سامية فى يد الأمة تستعين بها مع الحكومة على قتل الرذيلة والفوضى والضعف التى يمثلها ذلك الحيوان المشوه الفظيع .

ومهما يكن هذا التفسير لهذا الشعار خياليا أو حاملا شيئا من تصوير المبالغة التى قد لا تعبر عن الروح الواقعى العام إلا فى بعض الأمم وفى بعض الأحيان وفى ظروف خاصة يدخلها الشيء الكثير جدا من التغير والتبدل والتكييف والتأويل ، حتى تنهضم. مهما يكن ذلك فى أمر هذا التفسير الصحفى ، فإنه يحمل حقيقة رصينة يصدق انطباقها وسريان مفعولها فى بعض الظروف كما قلنا .

فكان الصحافة عند الأمم البعيدة الشأوفى الحضارة هى الوسيلة المشروعة لإنارة طريق الحكومة ، والمشى فى خطتها اكتساح الآلام المادية والأدبية من طريق الأمة الحية المستنيرة ، وإذن فما هو سبيلها ؟ سبيلها طبعاً النصح الحقيقى والإخلاص الوثيق للحكومة التى تسعى هى بدورها فى نصح وإخلاص

للأمة التي تتولى شأنها وتحكم في مصيرها وتقودها إلى المستقبل المرجو ، مستقبل الثروة والعلم والمكانة الاجتماعية الجيدة المؤدية إلى غبطة وسعادة وبلهنية تتمتع بهن الأمة في الحياة ، وإذا سعدت الأمة فإن سعادة الحكومة تكون بالطبع أمراً لازماً ونتيجة طبيعية معقولة لهذه السعادة الناشئة من طريق التضامن والمساعى الجليلة المتبادلة بين الجانبين ، هذا إذا تسامحنا فلم نقل إن الحكومة قد تكون أول هيئة اجتماعية تستفيد من اتجاهات الصحافة ومباحثها المختلفة في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية .

وأى طريق إلى السعادة والبلهنية وتفوق المكانة للأهم الحياة أقصر من هذا الطريق الذي تتضافر فيه قواتان متساندتان تتألفان من وثاقة الاخلاص وحقيقة النصح : قوة تعطى للأمة من الحكومة ، وقوة تعطى للحكومة من الصحافة .

ومهما تكن قوة الصحافة ونفوذها وسلطانها فإنما كل ذلك يستمد من قوة الحكومة والأمة ، ويكون في الوقت نفسه عنواناً صحيحاً لما في البلاد من سياسة عاقلة متقدمة ، وقوة حقيقية تعند بنفسها وتتأهل للقيادة السعيدة المنظمة السائرة في أجل وجهات الحياة .

كثير من الهيئات استفاد من الصحافة فائدة جلى ، من إرشادها وثاققتها ومن الإعلان الذي يلفت الأنظار نحو بضائعها ومنسوجاتها ، ومن المثل العليا التي كثيراً ما تلتبس في أبواب المجلات وحقول الجرائد ، وصفحات النشرات العامة .

وليست الصحافة مجالاً لسرد الأحاديث والآراء وغيرها بلا غاية وبلا

هدف سوى اكتساب الشهرة على كواهل القراء والمشاركين، أو اكتساب
الدرهم والدينار ليس إلا من استرضاء هذا ولقت نظر ذلك وخدمة أغراض
هؤلاء، كما يفعل البهلوان أو المشعوذ أو المأجور، كلا، ولكن الصحافة فن
وعلم ومبدأ وغاية ودرس يتخلله النبيل، ويلزمه القصد في مسيره، وشرف
الحياة في أعماله، وتنوير الجمهور، وتثبيت المبادئ والطرق السديدة في شتى
نواحي الحياة العامة.

وكثير من متفوقى الرجال لم يتكون لهم مبدأ سام إلا من طريق
الصحافة، وكثير من الصحف قادت سياسة أمة بأسرها، ووضعت لها سبل
النجاح في عدة مشاكل اجتماعية واقتصادية كانت لولا الصحافة ظلمات
بعضها فوق بعض.

قال الاستاذ محمد عبد الله عنان الكاتب السياسى والمؤرخ العظيم
والمحامى المصرى البارع فى فصل له عن الصحافة ما نصه : لا يستطيع مؤرخ
أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته الصحافة فى تطورات العالم السياسية
والثقافية منذ أوائل القرن الماضى ، ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى
أن ينسى أن الصحافة كانت إلى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات
النصر ، وليس مبالغه أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة سلطة
رابعة إلى جانب السلطات الدستورية الثلاث : التشريعية ، والتنفيذية
والقضائية ، وفى ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها فى الدولة
والمجتمع . تنشئ حكومات وتسقط حكومات ، وتحشد الرأى العام لتحقيق
برنامج معين أو فكرة معينة ، وقوتها فى ذلك لا تعادلها قوة ، ونفوذها
لا يجاريه نفوذ .

هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلا أو مناقشة ، وما زالت الصحافة
في الأمم العظيمة الحرة هي صاحبة المقام الأول في قيادة الرأي العام ، وفي
توجيه القوى السياسية والاجتماعية .

من هذا وما سبق أن بسطناه من الأفكار تتضح قيمة الصحافة الحقيقية
ومزاياها وتأثيرها القوى في حضارة الأمم ومصائرهما الأدبية ، فلماذا يجب أن
نفهمها حق فهمها ، ونضعها في المكان اللائق بكرامتها من الاحترام والتقدير .

هل للنجاح المحدود صلة بفضائل النفس الكبرى ؟

الحياة ميدان فسيح رحب الجوانب متعدد المذاهب ، وفي هذا الميدان جوانب لامعة رصينة فيها أمور المجد الكافية ومزايا النبيل الحقيقي ، كما فيها جوانب مغشوشة ينخدع بها جبان الحياة من أول وهلة فإذا عرضتها على محك السمو المتغلغل في صميم العبقريّة خانها العرض وانزوى بها التزوير إلى ذلك الجانب القصير المدى الضيق الانطلاق .

فإذا رأيت من الشخصيات الإنسانية من يقع حظه القصير على جانب من هذه الجوانب المغشوشة الخادعة يهرجها صغار الأعين فينجح فيها نجاحه الرخيص فثق أن هذه الشخصيات من البعد عن الفضائل الكبرى للنفس الإنسانية بحيث يعوزها الإنتاج الخصب في الجوانب اللامعة من ميدان الحياة ، وأن نجاحها هذا ليست له أية صلة بتلك الفضائل الإنسانية التي تحتفظ بها الحياة لأبنائها الممتازين هبة سماوية عزيزة الإدراك بعيدة الشأو ، فإنما هو نجاح محدود لا يقام له وزن عند ذوى النفوس المليئة بكنوز النفوس .

هذه — ولا ريب — آراء تقررها الفلسفة العالية ويثبتها علم النفس ، ويعيرها الأدب أشد أوتاره موسيقية ورنينا ، فلا تغررك المظاهر السطحية والمسائل المتاحة لكل عابر سبيل ، فإن الأجدر بالتقدير والقياس هو الحقائق المنتجة التي يكبو دون الوصول إليها عشاق الخيالات أو رواد البهارج الزائفة .

أقول هذا وأنا مستطيع أن أضرب له عديد الأمثال من شتى نواحي الحياة في التفكير والعمل .

ان تشارلس دارون الشهير صاحب مذهب النشوء والارتقاء، ونظرية أصل الأنواع، كان الحظ الرخيص قد هبط به في بادئ أمره عندما تقدم إلى أحد اقربائه ليأخذه معه في سياحة جوية في طائرة، فلم ينجح في هذه المحاولة، ولكنه — لحسن حظه — أدار نظره إلى حقائق العلم الرفيعة وتجارب الحياة المجدية، ومعجزات الفن الطبيعي، فكان منه للعالم دارون الخالد الذكر وأحد بناءة السكون في نظر العلماء ورجال الفكر الممتاز.

فهل لنا أن نعتبر سقوط دارون في تلك المحاولة البسيطة دليلاً على عدم استعدادة للشغل العليا، أو على نضوب نفسه من منابع تلك المثل؟ لا لا، المسألة بالعكس، فلو نجح دارون في الطيران حول الأرض لأخذت نفسه بهذا النجاح المحدود، ولتغطلت منها جوانب فضائلها المكنوزة فخبا تدريجياً ذلك الشعاع الذي — بفضل هذا السقوط — ملاً الدنيا رهجا وقلب تجارب العلماء الأقدمين ونظرياتهم رأساً على عقب.

هنا في مثل هذه المواقف تمتحن النفوس حقيقة، لا في غيرها مما يناله الدهماء وطلاب النجاح القصير :

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعاداً بعد أبوالا

وإن دينيسى الشهير الذى حاز إعجاب العالم وهو على العرش، لم يأت بفائدة حينما أسندوا إليه إدارة مدرسة، وهكذا النفوس العظيمة الغنية بمواهبها المكنوزة لا تفلح في رخيص الأمور، ولكنها تبرز وتلع وتعطى أحسن الإنتاج إذا وجهت للعضائم والمسائل الانسانية الكبرى العامة الواسعة، وحسبك أن الطفل الصغير يعجز عن تدبير أمر كبير أو حل

مشكلة حيوية أو إيجاد عمل يملأ فراغ الحاجة ، ولكنه يستطيع حفظ جدول
الضرب عن ظهر قلب ، ويستوعب بذاته مسائل سهلة من بسائط العلوم
المدرسية قد لا توافق طبيعة من يدبرون كبار الأمور ، ويحلون مشاكل الحياة
والاجتماع ، ويخلفون الأعمال الكبيرة في هذا العالم العظيم .

وجوب الاستعداد للاحتفال بذكرى المتنبى

بمناسبة قرب مرور ألف سنة على وفاته

في السنة الهجرية الآتية : « سنة ١٣٥٤ » ^(١) ستم ألف سنة على وفاة الشاعر العربي الاسلامي العظيم ، أبو الطيب احمد بن الحسين المتنبى الذى ولد بالعراق « الكوفة » في سنة ٣٠٢ هـ ونشأ وتعلم في سوريا « حلب » وفيها نظم أبليغ قصائده الخالدة ، ورحل في طلب المجد الى مصر ، وبها أقام زمنا تفيض به - حول نيلها - شاعريته الممتعة ثم توفى في سنة ٣٥٤ هـ

فالمتنبى شاعر تشترك فيه الأقطار العربية ، وتفتخر به الضاد من أقصى حدود بلادها إلى أقصاها بلا تفريق .

ولسنا الآن فى صدد كتابة تاريخ حياة شاعر العربية العظيم ، ولكننا نريد إيقاظ شعور الأدباء والمتعلمين فى جزيرة العرب إلى وجوب الاهتمام بذكرى مرور ألف سنة على وفاته فى موعدها الذى اقترب منه جدا ، ليؤدوا بهذا واجبا أدبيا يشعرون به للمتنبى .

وقد علمنا بما قرأناه فى الصحف أن مصر وسورية والعراق والمغرب ، تنهيا للقيام باحتفالات هائلة بهذه الذكرى العظيمة للشاعر الخالد ، وعلمنا

(١) كتبت هذه المقالة فى سنة ١٣٥٣ هـ الموافقة ١٩٣٤ م

أن القطر التونسي كان السابق في التنبيه لهذه الفكرة ، وأن صحيف سوريا قامت ، تحت العرب هناك على التهيؤ لها ، ونحن نجزم أن ستحقق البلاد العربية كلها هذا الأمر الحسن فهتم له قبيل وقته ، وتضع البراج اللازمة لإجرائه فالتفت ليس بالشاعر الإقليمي ولا المخصص ، ولا هو بالذي يعدّ غض النظر عن إحياء ذكره أمرا عاديا ، فهو شاعر اللغة العربية الفجل ، وهو بمنزلة معلم عظيم من معلمى أدباء العرب ، وهو نجم ساطع خفاق من نجوم الأدب العربي النيرات . ولا يخفى مكانه في سماء الشعر ، وهو الشاعر الوحيد الذي لقحت آراؤه وأفكاره ومعانيه منتجات الأدباء في مدة ألف سنة على اختلاف طبقاتهم ، والذي قل أن تجد ادبيا عربيا إلا وهو يحفظ جانبا من شعره متنوع المقاصد الفلسفية في شتى نواحي الحياة الفكرية والخلقية ، ويتمثل بها في كتابته ويتلوها في مواضع الاستشهاد فيما يناسبها من حوادث الدهر ، ولا نظن شاعرا عربيا آخر ممن كتب لهم الخلود يبارى أبا الطيب في هذه المكانة قديما وحديثا — مع استثناء المعري — وإن ادعى بعض الشعراء أنه على غرار ، ولكن أين شعر التقليد من شعر الطبع ؟

كثرت الغم مرة صديقا لنا لفقد عزيز لديه ، وزارنا هذا الصديق في مكتب عملنا بمجدة — قبل عامين — وكان باديا أثر الأسف والتحسر على وجهه المربد ، فأخذت أخفف ويلاته ، ثم أنشدت بيني وبين نفسي بصوت مسموع دون أن أوجه إليه الخطاب :

أنت يافوق إن تعزّى عن الأحبا ب فوق الذى يعزبك عقلا

وبألفاظك اهتدى فإذا عزا لك قال الذى له قلت قبلا

ابدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

فإذا بالصديق وقد أثرت فيه الأبيات الثلاثة يهتز فى مقعده ، وإذا بى انتهن الفرصة فأعيد تلاوتها بين الفترة والفترة ، وإذا به ينتقل تدريجيا من السكابة التى أذلته الى طلاقة الحيا والرضا والاستئناس والمرح .

وأخذت بعد هذا أفيض الشناء على المتنبي وشعره ومبلغ أثر هذا الشعر فى النفوس ، وكيف غسلت أبياته هذه حزن الصديق ومهدت له سبيل استقبال الحياة من جديد ، فأكد لى انه كان يعتقد وأنا أتلو الأبيات أنها من شعري ، وأنى نظمتها الساعة لمواساته ؟ فقلت له ! صدقنى ان هذا الخلود الذى ناله المتنبي ليس عن عبث ولا هو وليد صدفة او محاكاة ، كلا ، ولكن الرجل عبقرى فى قرارته ، وقد درس طبائع النفوس ومكان الأفكار والعواطف فيها ، ولمس أدق اسرارها فعبر حسب هذه الدراسة وهذا اللبس ولهذا سيخلد شعره الآلاف الأخرى من السنين ، وسيبقى الى الأبد كما يبقى الذهب الخالص تحت رزح الاجيال والدهور .

وجادلنى مرة صديق آخره المام بالأدب ، وكان الموضوع شعر شوقي ، وهو يفضل هذا الشاعر على كثير من غيره ، وتبلغ به القحة أن يقارن بينه وبين المتنبي ، فادعى أن « الصور » فى شعر شوقي فاتنة تماثل صور المتنبي ، وكان برغم إلمامه وادعائه قليل الاحساس بفتنة الصور الشعرية ، وضعيف التذوق لمعانى الفتنة الحقيقية ، وكانت لشوقي عنده مكانة فوق مكانته

الواجب وضعه فيها ، وتقدير لا يرتكز على علم صحيح أو فن قويم أو تحليل دقيق ، فكان كلما تلا على صورة من هذه الصور الشوقية جلوت له ضعفها حتى يلبسه فيرتدنا كصا ، وأقنعتة أن في شعراء مصر من لا يدانيه شوقي ، فهذا العقاد ، أو حافظ ، وحسبك بهما أو بأحدهما شاعرا ، يبدو شوقي طفلا بالنسبة إليه ، والمقام لا يساعدنا هنا على تحليل الشاعرية عند كل هؤلاء ولا عند واحد منهم ، فإلى الفرصة ، وأخيرا قلت للرجل اسمع وتلوت للمتنبي :

كفى أراني - ويك - لومك ألوما هم أقام على فؤاد أنجما
وخفوق قلب لو عرفت لهيبه ياجنتي لرأيت فيه جهنما !

وهذه صورة يرسم فيها المتنبي - بغير أن يتعمد الرسم ، وهنا الفن - ، قلبه الذي أنجم « رحل » ، وقد أقام فيه الهم إقامة بارزة جعلت لوم العاذلة ضربا من العبث جدير هو باللوم نفسه ، لأن هذا القلب المشغل مستديم الخفوق ، مغموس باللهيب ، لو أتيح للجحيمية - وهي جنته - أن تراه لرأت أمامها جهنم بما فيها من الهول والخطر ، فهذا القلب الجهنمي الذي اندلع منه اللهيب ، وربضت عليه الهموم ربوض أكداس الوقود في عرصات الجحيم إنما هو صورة حقيقية مصغرة لجهنم بما فيها من وسائل التعذيب .

وكان هذان البيتان وحدهما كافيين لأن يسحقا من مخيلة صاحبنا ألف أثر وأثر لألف بيت وبيت كان يحفظها لشوقي ويتشدد بها في كل ناد ، على أنها أبيات فيها « تصاوير » فاتنة ، واكتفيت بهما ولم أعد أمضي في الاسترسال ،

لأن صاحبي كان قريب الايمان ، وكان لقرب إيمانه هذا أثر في انخداعه
بخرقة شوقي الرخيصة ، وأخذ من ذلك الحين يولى وجهه شطر الحقيقة
وبدا يحس بما في المتنبي من عمق وعظمة فنية وتأثير وسبب للخلود .

ولمتنبي اعتزاز هائل بنفسه ، وتقدير لهذه النفس حق قدرها ، ليصون
كرامتها من الجاهلين من أذعياء الشعر في عصره ، فقد تحرش به هؤلاء
عندما وفد إلى بغداد تاركا مصر على أثر يأسه فيها من الأسود الممتلك —
كافور الأخشيدي — وقد عاداه في بغداد الوزير المهلبى ، لأنه لم يمدحه جريا
على عادته في عدم المدح لغير الملوك ، فأغرى هذا به أولئك ، ولكن المتنبي
العظيم لم يجهم على سفاههم وإنما قال عندما روجع في عدم إجابته إياهم ! إنى
فرغت من هؤلاء . وأمثالهم عندما قلت فيمن هم أرفع طبقة منهم من الشعراء :

أفى كل يوم تحت ضنبي شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول
لسانى بنطق صامت عنه عادل وقلبي بصمتى ضاحك منه هازل
وما التيه طي فيهم غير أنه بغيض إلى الجاهل المتعادل

وقولى :

أرى المتشاعرين غووا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجرد مرا به الماء الزلالا

وهكذا تتم عظمة المتنبي في شعره وأخلاقه وأفكاره ومكانته .

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن المتنبي كان من المتكسبين بالمديح كما هي

العادة عند كثير من المتشاعرين ، كلا فليس مديح المتنبي لبعض الملوك إلا أمراً عرضياً لم يجعله الغاية من الشعر ، وقد كان هو نفسه طالب ملك فسبر أغوار هؤلاء بهذه الوسيلة كما سبرها بغيرها من الوسائل ، وإذا تعددت وسائل المرء — ناهيك إذا تضادت — كانت دليلاً على أن الغاية إنما هي شيء آخر أعظم وأجل .

فمديح المتنبي يحىء ثانياً بعد ملكة الشعر الطبيعية عنده ، وتبدو البلاغة التي هي أساس شعره في التأثير على النفوس الحساسة ، والتي مظهرها الأول إنما هو في أقواله التي يصف بها طبائع النفوس وحقائق الحياة وأخلاق الدنيا وأهلها ، وقد كان هجاء مقنناً ، إلى جانب مديحه المعسول البليغ .

وبالإجمال فن أية ناحية من نواحي المتنبي أردت البحث لا تجد إلا عظمة وتفوقاً ، ينتهيان بغلبة وانتصار ، وليست تلك الغلبة وذلك الانتصار ، للذات ينتهي بهما تفوق المتنبي وعظمته إلا انتصار الفن وغلبة الحيوية الشخصية التي تتمم الفن أو تبرزه مجسماً ، فقد عاش المتنبي فكرة أكثر من عيشه شخصاً من بني الانسان ، وكان فكرة صاقبة مجلجلة تدور حولها حيثما وجدت شتى المنازعات وشتى العواطف والآراء ، ولقد كان الرجل قطب الدائرة ومركز المجموعة الشمسية من شعراء وأدباء عصره ، سواء أكان وجوده في بلاده أم في غير بلاده ، فقد كان كذلك في العراق وفي سوريا وفي مصر : في العراق حيث الحساد والمناوئون من الوزير المهلبى وأعوانه إلى الخاتمي وابن سك الشعارين ، وفي سوريا حيث المحبون والمعجبون من سيف الدولة بن حمدان ومن على رأيه ، وحيث الأعداء المزارحون أيضاً

من أبي فراس الحمداني إلى ابن خالويه، وفي مصر حيث يجد الرعاية والعطف أولا من أكبر رأس يسوسها، وحيث يجد الانقلاب والتنكر بعد ذلك من هذا الرأس ومن الوزير ابن خزابة، كان الشاعر الخالد مثار الضجة ومحور كرة الحياة الفكرية في كل حالة من هاته الحالات المختلفة، ترحل معه هذه الضجة والزعامة اذا رحل، وتقيم معه حيث أقام، وكان هو يغذيها من فنه وسمو شخصيته بما يجعلها تلهب وتزداد اشتعالا. كان يفيض حوله كبرياؤه الشاخص وترفعه النبيل، واعتزازه بتلك الشخصية وعزوفه عن سخافات القراء الصغار.

هذا جانب وجيز من شاعر العربية الخالد أبي الطيب المتنبي نعرضه على القراء عسى أن يستوفزهم الأدباء للتصميم على التفكير من الآن للاستعداد بإقامة حفلة تذكارية له عندما يحل موعد مرور ألف سنة على وفاته، ويحل هذا الموعد في العام الآتي كما أسلفنا، وإن الحجاز ليرز للعالم المستنير صفحة مجيدة من شعوره الممتاز إذا اقتبل هذه الفرصة للبرهنة من جديد على هذا الشعور الذي ينتظره منه العالم العربي، وإن مكة المكرمة لتؤدي واجبا قويا يحفظ لها مكانة سامية بين عواصم البلاد العربية بإقدامها على هذا الأمر الجليل.

وإن روح المتنبي من وراء ألف عام لتنظر الى ما يقوم به الشعب العربي الكريم نحوه من واجب محتوم، لا تكون المعذرة عنه إلا ضربا من الإهمال والضياع الذي يدل على تلاشي الشعور والحياة الأدبية العاملة.

إن الحجاز — أوبلاذ العرب، مهد القرآن الكريم؛ وهذا القرآن

هو أضواء شمس تسطع في تلك اللغة العربية المجيدة التي من كواكبها
البارزة هذا المتنبى وشعره ، فإحياء ذكر المتنبى والاهتمام به والاحتفال له
إنما هو جهد عظيم يوجه للعناية بهذه اللغة الكريمة التي هي مدار عز
العرب ومحمدتهم ولواء نهضتهم الخفاق ، فمن غير الحجاز أخرى بأداء هذا
الواجب العظيم ؟ ؟ .

مؤسسة للبؤساء

عمل وأمل - دار العجزة - دار الأيتام - تطور الفكرة

هذا بيان لمجموع الشعب نقصد به شرح عمل مجيد خيري يعد في كل الأمم من أوليات أعمال الانسانية وضروريات حياة الشعب الراقية، إذ من الثابت أن الشعب كلما ارتقى في حضارته ومستواه العقلي ترتقى فيه عواطف الرحمة والتبذل والعطف على بآسيه من فقراء ومنكوبين وأيتام ومتعدين الخ. نقصد بهذا البيان سرد تاريخ دار العجزة الحالية التي أنشئت لإيواء الفقراء والمعوزين وما عطف به أهل المبرة عليها من أعمال الخير، ثم بيان الأمل الهائل الذي يتطور في هذه المؤسسة الصغيرة فيصل بها فيما نعتقد إلى مؤسسة عامة تشمل هذه الدار وداراً أخرى لتربية الأيتام من أبناء الشعب العربي وتعليمهم لوازم المعيشة ووسائل الحياة التي لا بد منها.

فنقول أولاً إن دار العجزة الحاضرة أسست في عام ١٣٥٣ هجرية وكانت فكرة اختمرت في ذهن صاحب السعادة مدير الشرطة العام مهدي بك فنفذها إلى حيز الفعل بعد الاستئذان من صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز الأول فسمح جلالته، وكان المنتظر من أمتنا وهي مسلمة وعربية أن تبذل في سبيل المشاركة في إقامة هذه الدار كل ما تملكه من عاطفة نبيل وجهد يؤدي إلى المشاركة في إعطاء ما يساعد هذه الدار على الاستمرار في القيام بأعباء مهمتها الانسانية الكبيرة التي أسست من أجلها

وأخذت على عاتقها أن تنفذها حسبما كان ، مهما لقيت من مصاعب
وأتعاب . ولما كنا وإن لقينا بعض العطف من بعض مواطنينا فإننا ما زلنا
محتاجين إلى عطف أوسع وأكثر يهدم مصاعب العمل ويلاشى عقباته التي
لا بد أن تبقى قائمة إذا لم يتفضل الشعب بأسره فيؤدي واجبا هو في نفس
الوقت واجب مستحق للشكر الجزيل والمفخرة الدائمة ، وهذا من اقدس
الواجبات ولا سيما لمن يحتاج المساعدة منهم . وإي صنف من صنوف
الناس أحوج إلى المساعدة بمعناها من صنف العجزة والبهائسين والذين أخنى
عليهم الدهر بكل كلة وعضهم بأنياه فقرهم يتمرغون على بساط البؤس
والمتربة لا يعرفون طريقاً يسلكونه إلى سد حاجتهم في المعيشة ، وإن عرفوا
هذه الطريق معرفة نظرية فأين القوى التي تنهض بهم إلى سلوكها وهم مقصودو
الأجنحة ، مبتورو السواعد ، فاقدو الهمم بما رمتهم به يد الاقدار ؟
لهذا كله أسست أولا دار العجزة ، وأتبعته ثانيا بالتفكير في توسعة
نطاقها إلى دار أيتام أيضاً . .

وقد أشار حضرة الفاضل عبد القادر أبو الخير أحد أعضاء هذه الدار
ومحاسبها وأمين صندوقها « الفخرى » وهو من العاملين المخلصين لإنهاض هذه
الدار ومن الغير عليها والمتحمسين لها ، أشار في مقال نشره في العدد ١٩٩
من جريدة صوت الحجاز الغراء إلى ما لاقته هذه الدار في أطوار حياتها من
تشجيع وإغضاء وقعود عن مناصرة مشروعها ، فاضطر أن يذكر العدد القليل
جداً والبالغ في قلته حد الغرابة من السادة النبلاء المتبرعين لهذه الدار
الأمر الذي يستوجب الحجل والأسف على أمة كأمتنا لا يتقدم منها في هذه
الغاية من أبنائها سوى عشرة أشخاص نصفهم فقط تبرع بالمال والنصف
الآخر تبرع بجهوده الشخصية . لا نقول أننا لم نجد من يتقدم بها .

أسست دار العجزة في عام ١٣٥٣ هجرية الموافق ١٩٣٠ ميلادية كما ذكرنا آنفاً ، وكانت الغاية منها أولاً إيواء أولئك المنكوبين العاجزين عن الكسب ، ثم اراحة الحجاج والأهلين من إلحاح هؤلاء عليهم وعرض عاهاتهم على الأنظار ما بين كل آونة وأخرى ، وإخلاء الشوارع والحرم الشريف من أجسامهم التي ينبو عنها النظر ، فاتخذت داراً فسيحة تسع المئات من السكان أوفد إليها في عام تأسيسها ما ينوف على الثلاثمائة عاجز وعاجزة قام بإعاشتهم صاحب السعادة مدير الشرطة وهيئة من العاملين المخلصين انتخبها سعادته وأضاف إلى ذلك الدعاية الوافرة لها بين الحجاج والأهلين ، وعبد لها كل الطرق المؤدية إلى الغاية المنشودة من تأسيسها ، وكان مجموع ما انتهت إليه هذه الدعاية من المبالغ المخصصة لهذه الدار من الحجاج ما يقارب الأربعمئة جنيه انكليزى والمائتى طاقة من القماش والثلاثين كيساً من الأرز والعدس والحنطة . وهذا غير ما تفضل بالتبرع به حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم من المساعدة الدائمة ، وهى تسعون كيساً من الدقيق فى كل شهر ، ما تزال جارية حتى اليوم .

وفى عام ١٣٥٤ المنصرم بلغ وارد هذه الدار نحو مائة جنيه انكليزى أوتريد قليلاً ، وكيساً واحداً من الذرة ، وكان سكانها فى هذا العام يقاربون المائة . هذا مع استمرار نفس الدعاية التى بذلت لها فى عامها الأول ، والجهود التى صرفت فى انعاش هذه الدار .

أما ما صرفته هذه الدار من هذه الواردات فيعادل معظمها تقريباً حيث استهلك هذا المعظم فى مرافقها الحاجية والترفيه بقدر المستطاع على نزلها الذين أصبحوا بعد أن اطمأنوا الى النزول بها يعدونها غاية لا تنال من متاع الدنيا بينما كانوا على خوف من دخولها حين التأسيس ، لأنهم كانوا يظنونها سجنًا

لا مرفقاً حسناً ، ولكنها عادت عليهم بفضل المنصرف المذكور مأوى
طيباً ، إذ جادت محلاً وحسنت مرفقاً . أما ما بقى من ذلك الوارد فهو معد
طبعاً لزيادة الترفيه على هؤلاء المعوزين فى المسكن والمأكل والملبس المتوفرة
فيها شروط الحياة المريحة والصحة الجيدة ، حتى يستطيعوا التخلص بفضل
ذلك من هذه الحياة البائسة والرجوع إلى الحياة الطبيعية التى يتمتع بها معظم
الناس وقد تخلص قسم منهم من حياة البؤس حتى تضاعل عددهم من ثلثائة
إلى أقل من مائة .

دار اليتامى فى وضعها الجديد

ما كاد مداد القلم يحف بعد أن نفضنا يدنا من كتابة مقالنا الأول فى هذا الموضوع ، حتى كان المقال بين أيدي القراء الأماثل يؤدى مفعوله فى القلوب النبيلة العطشى إلى تحقيق النبل ، والأذهان الخصبه المتفتحة عن حيوية ترغب البروز فى ميادين الفضل والخدمة الوطنية الجليلة ، واللهفى على أداء العمل القومى الجميل لهفة الفحول الأصيلة إلى الصيال أو إلى إغذاذ السير فى طريق المكارم الوطنية والمعالي الناجحة ، وكأن طبعها الأصيل لا ينتظر بها إلا ريشما يدعوها الحدو الأخاذ فترسل نفوسها الحساسة جزاء عاليا لدعوة المجد إلى المجد ، وتعبير أولى لدعوة الأدب إلى اعمال النبل .

وما كاد مقالنا المشار إليه يفعل فعله المنتظر فى نفوس عظماء البلاد حتى أسرع منهم رهط مبارك النزعة ميمون اليد ، حفى بالخير ، إلى تلبية النداء الصادق لمعونة اليتامى بالمساهمة فى رفع الطابق الثالث من بناية دارهم الفخمة القائمة فى جياذ ، والتي تنتظر مثل هذه الأيدى الندية تمتد إليها محركة بنفوس عميقة الإحساس وهمم ملهوسة الانقاذ .

تقدم هذا الرهط النبيل من سراة الأمة فنضحت أريحيته الثرة بما يقارب ألفا من الريالات تتبعها ألوف متلاحقة من أمائل آخرين كانت لهم فى الماضى وكانت لهم فى الحاضر وستكون لهم فى المستقبل مواقف فعالة فى أعمال البر وتشبيد المفارخ وتقديم البراهين النيرة على أنهم عمد النهضات ودعائم الحياة

السعيدة في هذا القطر السعيد . ولو كان « الجنيه الانجليزي » هو وحدة العملة في المقادير المتوالية التي يتبرع بها المتبرعون في هذا البلد لكنت رأيت أريحية ذلك الرهط المحسن إنما نضحت بألف من الجنيهات بدل الريالات تتبعه الألوف من متبرعين آخرين ، ومع هذا فإن هذه الريالات التي امطروها على صندوق دار اليتامى هي اللبنة النقية البيضاء التي يشيد على أساسها صرح الذهب فيشيد على أساس هذا الصرح الذهبي صرح تقوم لبناته من مادة الحجارة في ظاهر الأمر ، ولكن حقيقتها لبنات معجونة من مادة الانسانية الممتازة كما نوهنا في مقالنا الأول .

اغتبطنا وكادت الغبطة تستخفنا عندما قرأنا نبأ هذا التجاوب المنظور بين دعوتنا المخلصة وتلبية الوطنيين المخلصين في أسرع مما ينتظر من الوقت فأما هذا الرهط الكريم وأما هذا النبأ الجليل فيطالعك في هذه النبذة الصغيرة التي كتبتها جريدة أم القرى الغراء في عددها الصادر يوم الجمعة . . . تحت عنوان « أريحية فائقة » :

« تبرع لدار الأيتام حضرات الأفاضل الشيخ يوسف أفندي زنيل بجدة ٢٥٠ ريالاً عربياً ومعالى الشيخ عبد الله السديري وكيل أمير المدينة ١٥٠ ريالاً عربياً ، وحضرة احمد أفندي باناجه بجدة ١٥٠ ريالاً عربياً وحضرة الشيخ عبد العزيز الخريجي بالمدينة ١٥٠ ريالاً عربياً وإن دار الأيتام تقدر لهم أريحياتهم وعطفهم عليها الخ »

وحبذا هي أريحية صادقة من هذا النفر الذي طالما صدق الخدمة لبلاده وأعطى البراهين على حيويته وحيوية الأمة التي انجسته ، فالشيخ يوسف زنيل هو عميد بيت « زنيل على رضا » وهو البيت الأصيل في التجارة

والسباق إلى المكارم ، وحسبك مؤسسه المرحوم « الحاج زنيل على رضا »
الذى كان يجلس للفقراء على مصطبة داره كل يوم ولا سيما أيام الجمع فيطعم
الجائع ويكسو العريان بيده حباً في إيصال الخير إلى مستحقه مباشرة ، وحسبك
شقيقه المرحوم « الحاج عبد الله على رضا » ذلك الأسد الذى
لا يكاد انناظر يتمتع بمرأى وجهه الكريم حتى يرى القوة والشجاعة
واللطف والعقل مجتمعة فى رجل ، وحسبك أن « أخاه محمد على زنيل »
هو مؤسس مدارس الفلاح فى الحجاز والهند والبحرين ، وما أنا فى صدد ذكر
ما أحدثته هذه المدارس الناجحة من أثر بالغ فى شباب هذه البلاد ، وكاتب
هذه المقال إنما هو غرسة واحدة من غراس هذه المدارس السامية .

وأحمد أفندى باناجه هو أحد أفراد هذه العائلة التجارية الممتازة بثروتها
فى جدة ، وهو وزير سابق للمالية فى عهد الحكومة الماضية ، وهو فى عهده
الحاضر نموذج من نماذج الاستقراطية المحبوبة النافعة ومثال من أمثلة
اللباقة والزكن .

وهذان البيتان الحجازيان الكريمان - بيت آل رضا ، وبيت باناجه - هما
مضرب المثل بجدة فى علو النفس والنشاط التجارى والقدم الراسخة فى بيوتات
جدة العالية .

أما معالى وكيل أمير المدينة « السديرى » فقد طفحت الصحف ولا سيما
المدينة منها ، بالثناء عليه لدماثة أخلاقه ومناهجه الديموقراطية ، وسبقه
إلى غايات الحمد .

والشيخ عبد العزيز الخريجي فاضل من ذوى الفضل فى المدينة وعين

من أعيانها الكبار ، ودرة لامعة في عقد النابيين هناك من تجارها ومشاهيرها ، وهو من أصل نجدى كريم استوطن المدينة من زمن بعيد ، وهو الفرد البارز الذى تتجه الأنظار أول ما تتجه إليه إذا ذكر عظماء المدينة ووجهائها .

لبت هذه الثلة نداء الإخلاص في طليعة الحساسين ، فلم يسعنا التسجيل هذه الظاهرة احتفاظاً بمزايا أمتنا العزيزة ونواحي نبيلها . واعتزازاً بنجاح الكلمة النابعة من شعورنا قبل أن تفيض على القلم ، وتنويهاً بشأن الإخلاص الذى متى كان عنصراً فعالاً من عناصر الأدب كان أداء رسالة ذلك الأدب مضموناً جيداً ، وهى نتيجة غير النتيجة التى ينالها أدب اللهو وإزجاء الفراغ .

وما دام فى الأمة من يعرف مواضع الحاجة الضرورية فإن فيها - قطعاً - من يعرف طريقة نشر هذه المزية الفاضلة على الغير ، جزاء عاجلاً للمحسن الكريم ومهمازاً جميلاً لغيره ممن هم فى طريقه إلى هذا الإحسان ، ونحن حين ندعو إلى مساعدة اليتامى والترفيه عليهم بتعمير قصرهم الجديد فإنما ندعو إلى عمل مبارك كالنهر ينبع من مكان فى حياة الشعب ويصب فى مكان آخر من هذه الحياة نفسها ، ينبع من القلوب الحية والهمم الناهضة ، وهى دليل قاطع على صلاحية هذه الأمة لسمو الحياة وحضارتها ، ويصب فى الوطنية السديدة فيزيدها سداداً ، وهو دليل يكشف عن عرفان الأمة معنى الوطنية فضلاً عن دلالة على عرفانها خلق الرحمة والعطف ، واستجابتها لدواعى الحياة الاجتماعية وتقديسها فكرة الإنسانية العامة فى شخص هؤلاء اليتامى الصغار .

هذه الريالات كانت فى صناديق أصحابها قطعاً معدنية من الفضة لا غير ،

فعدت الآن قطعاً حية ذات معان ساطعة من المجد وحب البلاد، وحب الخير وعظمة الأخلاق.

أما نحن فوكدنا قانون الحياة العام الصادق المنطبق على الافراد والجماعات، وهو أن الحياة أخذ وعطاء، فالموهبة التي أخذناها من الحياة واستوحينا قوتها من صميم عناصرها المتعددة نردها ثانية إلى الحياة دعوة قوية صادقة مؤثرة فتعود إلينا بعد ذلك مجاورة عملية، فنستأنف ردها إليها شكرياً ناضجاً وثناءً وهاجاً وذكرى خالدة نسطرها لأصحابها فتسفر هذه الحركات الاصلية في الحياة عن معنى لا يتاح إلا للقليل وتخرج من نطاق الأعمال العادية إلى رحبة الخلود المعطار.

(١) حياة سيد العرب

تأليف حسين عبد الله باسلامة

المطبعة الماجدية بمكة — سنة ١٣٥١ هجرية

أحمد هذه الفرصة التي أتاحها لي كتاب الأديب الشيخ حسين عبد الله باسلامة، العضو في مجلس الشورى الموقر، فمكنتني من الكتابة في النقد بعد أن كانت فترة لم أزاوله فيها، وقد رغب إلى صاحب « صوت الحجاز » الأغر أن ألقى على الكتاب نظرة فخص ليكون ذلك أدعى إلى شهرته ورواجه وتشجيع مؤلفه، قدسيت النسخة، وكان شعورى عند ما تسلمتها غبطة خاصة هي بالمسرة أشبه منها بغيرها، فإنه لا مانع أن يصل في ميدان التأليف والكتابة قلم العضو المذكور برغم موانع مركزه وعدم استعداده العلى والأدبى، فيضيف إلى المؤلفات الحجازية مؤلفاً جديداً، ويمشى في طريق سبقه إليها الأديباء، وإذن فلا مانع أن نشكر المؤلف على إقدامه ونشجعه على عمله، بهذا التنويه.

نظرت الكتاب فإذا هو على نوع من التأليف لا يقصد به إلا التجارة والاكتساب ليس إلا، وليس هو من النوع المتعمق في وضعه بدقة لأجل خدمة العلم أو الفن، فهو عبارة عن مجموعة من الحوادث التاريخية والأقوال

(١) كتبنا هذا الفصل ونحن عازمون على متابعة النقد حتى نأق على الكتاب برمته وهو في أربعة مجلدات، ولكن ما كدنا ننشر هذا الفصل في جريدة « صوت الحجاز » حتى أخذت شتى العوامل تعمل على طلب وقف القلم عند هذا الحد نظراً لظروف اجتماعية تعيق المؤلف الذى ما لبث أن توفي رحمه الله.

السائرة في الصحف الدورية مزودة بقسط هائل من الأغاليط والمفارقات وإهمال العناية الواجبة والتطاول الذي لا مسوغ له على أساطين المؤرخين وقساطر الكتاب ورمى بعضهم بالإلحاد أو المادية والجمود .

ونظرتى إلى هذا الكتاب انما تنحصر في ثلاثة أمور لا أتعدها إلى غيرها من الأمور الأخرى ، لأنه ليس لدى الفراغ الكافى لتحليل هيكل الكتاب بأجمعه ، فحسبى أن أنقد هذه النواحي الثلاث التى لاحظتها بسرعة ولعل الفرصة تتاح لنقاد آخرين :

١ — الغلط النحوى والصرفى .

٢ — إهمال نسبة الروايات إلى أصحابها .

٣ — الركاكة والانحلال فى التعبير .

وقد يجد المطالع إلى جانب هذه الأشياء عجرفة من المؤلف وغرورا ودعوى جوفاء يسوقها دون وقار ولا حيطة ما بين كل فترة من صفحات الكتاب ، وفى ذيل أو تضاعيف كل فصل من الفصول التى يأنس من موضوعها أنه يساعده على بذل ما فى نفسه من هذه الصفات .

لقد آثرت حبا فى التقصى المنسق ، واقتصادا فى الزمن أن أتتبع نقد الكتاب صفحة فصفحة ، أو فصلا ففصلا ، حتى أعبر ما بين دفتيه من شاطئ الغلاف الأول إلى شاطئه الأخير ، فذلك خير لى وللمؤلف نفسه من أن أقسم مواضع النقد فأضم إلى كل قسم ما يندرج فيه من المواد المنقودة .

ولقد يحزب النفس ويهول المرء أن يرى فى كتاب كهذا ما أشرت إليه من جوانب الضعف والفساد وعقم الصناعة .

فأما الغلط النحوي فأبرز عيوب الكتاب، وهو عيب يستوى في معرفة الانحطاط إليه كل من العالم والأديب والكاتب والشاعر والمؤلف والصحفي، فلا مناص أبداً لأحد من هؤلاء من وجوب تجنبه والترفع عنه، وأما إهمال نسبة الروايات إلى أصحابها في كتاب يزعم صاحبه أنه كتاب تاريخ، برغم دعواه في تضاعيف الكتاب أنه «يسند» الحوادث إلى رواتها والاقوال إلى مراجعها فذلك ما يقصم الظهر ويبعث جهد المؤلف ويضيع مزية الكتاب وينم عن فشل غير محمود، وخلو من خلق الصبر والناة على معاناة الاستقصاء والمراجعة، وهو ما لا يعرفه مؤلفو التواريخ في الشرق والغرب، وهنا تنهار الفكرة التاريخية من أساسها، وتبقى في الكتاب أشباح ماثلة لا قيمة لها ولا غناء، وأما الركافة في الأداء والانحلال في التعبير فأمر أظن المؤلف نفسه لا يدعيه لنفسه ولا يحسر أن يدعى أنه من الضاربين فيه بسهم، وأنه ليشعر في قرارة وجدانه ببراءته منه فيردد مع الحارث ابن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله ولكني بحرهما اليوم صالي

وهناك أغلاط تاريخية وغير تاريخية سأشير إلى بعضها عند المرور بها حين مسيرى في نقد الكتاب وهأنذا أبدأ بما أشرت إليه من الأمور الثلاثة :

جاء في الصفحة الثالثة في معرض كلامه عن طغاة العالم قوله ! « وكيف حفروا عن حتفهم بظلفهم » ، ونحن والناس معنا أجمعون ، لا نعرف أن للإنسان ظلفاً يحفر به عن حتفه ، ولكن الأظلاف إنما تكون للبقر ، غير أن المؤلف قصد الاستعارة لا ريب ، فشبه الإنسان بالبقرة واستعار له ظلفها على قاعدة العرب الأقدمين ، ولا مانع من هذا ولا جحود لو أن المؤلف أحسن التعبير في استعمال المثل العربي على أصله وصحته فقال « كالباحث

عن حقه بظلفه ، أما في استعماله على الوجه الذي اختاره صاحب كتاب حياة سيد العرب « ففيه مالا يغتفر من اساءة التصرف في التعبير ، كإيرازه الكلمة على صيغة الجمع والامثال عادة لا تبدل وإنما يؤتى بها على أصلها ، وكاستعماله ، لفظ الظلف مفردا وهو يقصد وصف الجماعة فهل لكل هؤلاء الحافرين الذين ذكرهم ظلف واحد إذا صح أن ينسب إليهم هذا العضو المستعار؟ هذا مالا يميزه علم الحيوان فضلا عن علم الأدب والبلاغة العربية وكستعدي الفعل « حفر » بعن والمعروف فنيا في هذا الفعل انه يتعدى إلى مفعوله بنفسه لا بحرف الجر ، فتقول مثلاً : حفرت البئر ، وما شئت من مثل هذا السياق المعقول .

وهي غلطة نحوية لا نستجيزها في كتاب يوضع بين أيدي الناشئين وطلاب المدارس ، دع الكتاب والأدباء ، فما كان أسهل على الشيخ لو كان ذا قدرة على الكلام من أن يقول « وكيف بحثوا عن حقه بأظلافهم » ، إذا لم يرق له أن يرسل المثل كما نطقه العرب ويضعه في مكانه مع حسن الأداء فيقول « وكيف كانوا كالباحث عن حقه بظلفه »

وجاء في الصفحة الرابعة كتابة كلمة « إرشاد » بهمزة فوق الألف ، وهو خطأ في الإملاء كنا نهى عنه طلبة القسم الابتدائي في المدارس ، وحق الكلمة أن تكتب همزتها تحت الألف ، لأنها مكسورة مراعاة للذوق في فن الخط .

وجاء في الصفحة نفسها « ولم آل جهدا عن تصفح ما وقع في يدي من الكتب الخ » وان كل ما وقع في يده من الكتب — إذا سلمنا ان كتبنا وقعت في يده — لا يألو مؤلفوها جهدا في تحرى الصحة والصواب

فيما يزاوون من كل ما يجمل فن التأليف ويكمّله ، وفي الوقت نفسه لا يألو صاحبنا « جهدا عن تصفح » هذه الكتب ، وهو بعد هذا لا يدرى كيف يجب ألا تكون الألاءة في الجهد من أهم نواحيها ، فيقع في مثل هذه الغلطة النكراء ويعدى فعل « آل » بعن وهو لا يعدى إلا بني وكأنا نحسب ان هذا المؤلف مغرم بحرف « عن » الجار غرامه بالأغلاط والعثرات المبتوثة في تضاعيف الكتاب !!

وجاء في الصفحة نفسها أيضا قوله « وقد أسندت بعض الحوادث إلى مخرجها ورواتها التي اقتضت الضرورة اسنادها » وهو يريد أن يقول : « وقد أسندت بعض الحوادث التي اقتضت الضرورة اسنادها إلى مخرجها ورواتها » فجاء يرطن بتعبير فاسد فصل فيه بين الموصوف والصفة ، وأرجع فيه الضمير إلى غير مرجعه الواجب حتما أن يرجع إليه ، فكأنما حمل معولا وحطم به هيكل اللغة العربية تحطيا يقض مضاجع سيديويه والخليل وثعلب والمبرد وتطأير له أرواحهم من أجداثها ..

وجاء في الصفحة نفسها أيضا « ... قد بذلت قصارى جهدى في تحرير نسب العرب حيث أن الروايات في الأنساب كثيرة جدا ومن أصعب الصعاب الوصول إلى نسب للعرب متفق عليه غير نسب النبي صلى الله عليه وسلم » !!

وهنا وهم عظيم وخطأ تاريخي أعظم ، أما الوهم فهو حيث يحسب المؤلف أنه بذل قصارى جهده في تحرير نسب العرب وهو لم يذكر لنا طريقته التي اتبعها في تحرير هذا النسب ، ونحن موقنون أنه لم يصنع شيئا

من هذا القبيل، وهذا كتابه أمامنا يخلط فيه بين الأنساب العربية بما يخلج بسطاء النسابين ويستثير شعور من عرفوا طريقة ابن الاعرابي وأبي عبيدة والأصمعي والمفضل الضبي في تحرير الأنساب. وأما الخطأ التاريخي فهو زعمه ان من أصعب الصعاب معرفة نسب للعرب متفق عليه، فلم هذا الغلو الشنيع وهاهي ذي أنساب القبائل والعمائر والبطون والأخاذا والسلائل والبيوت متسقة متسلسلة معروفة ضبطها وحررها من يعتمد في النسب على أصغر تلاميذه ؟ ونحيل المؤلف على كتب الأنساب والتاريخ والسير فإنه واجد في طبقات ابن سعد، والإصابة، وأسد الغابة، والاعاني، وابن الأثير وغيرها ما يرجعه ناكصا على عقبه، تاركا أمثال هذه الدعاوى لمن عاشوا في أشد العصور ظلمة وجهلا، وعلى وثائق النسب العربية الصحيحة المحفوظة عند قبائل العرب في نجد وسوريا واليمن وقبيلتي شمر وعنزة الكبيرتين مما يسمى بعضه بسلاسل الذهب، وبعضه بسبائك الحرير.

وجاء في الصفحة نفسها مردفا إلى الجملة السابقة وكذلك اجتهد كثيرا في الوصول إلى معرفة أسماء أول من أسلم من الصحابة قبل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقبل دخول دار الارقم حتى أحصيتهم فردا فردا فبلغوا اثنين وتسعين صحابيا، لأن أكثر أصحاب السير والتراجم يذكرون أن عمر لما أسلم كان في تمام الأربعين فظهر بالإحصاء غير ذلك »

وهذا تصریح لا يستطيع أن يقوله إلا رجل موظف في مصلحة الإحصاء لنفوس الأحياء لا للموتى الذين مضى عليهم ثلاثة عشر جيلا ونصف جيل، فاستحلف هذا المؤلف يميناً مؤكدة كيف استطاع أن يقوم بعملية الإحصاء هذه للموتى من قبل أحقاب طواها البلى ؟ أساعده على هذه المهمة ملك الموت

عزرائيل؟ أم كشف الستار عن مسرح الرواية التي مثلت في دار الأرقم ابن أبي الأرقم
الخزومي؟ أم كيف وفق إلى هذا الضبط والإحصاء؟ وكيف طوعته
نفسه أن يقول إني تتبعت الأموات فأحصيتهم فرداً فرداً؟ وهل يسمح
حضرة المؤلف فيفيدنا عن هذه الطريقة الإحصائية السحرية التي يمكننا
أن نستعملها عندما نريد أن نعرف كيف نكتشف عدداً خاصاً قال غيرنا
غيره ووافقنا عليه القليل! ثم كيف يجوز للمؤلف أن يرفض قول أكثر
أصحاب السير والتاريخ والتراجم ويتبع الأقل، أهو حب الشذوذ، أم حب
التحرى؟ فإن كان حب التحرى فليس طريقه اتباع الأقل وإنما طريقه
الاجتهاد الحقيقي والاستقصاء الفكري والاعتماد على العلم والذهن في البحث
والتنقيب، وكل هذه أمور لا يدركها الناقد ولا يحسها في تأليف
الشيخ باسلامة.

ومثل هذا قوله في الصفحة الخامسة إنه تتبع من تسمى في عصر النبي
محمداً لأجل النبوة وأحصاهم ستة عشر، ونحن في ريبة بينة من هذا الإحصاء
الذي لم يقل لنا المؤلف ما ميزته فيه؟ وهو أمر مذكور حتى في أبسط كتب
التاريخ وأقربها متناولاً إلى اليد!

وجاء في الصفحة نفسها: «ولاحظت على كل اعتراض جاء من بعض
المستشرقين والمبشرين والإلحاديين والماديين والمشككين في صحة كتب
الإسلام وتاريخ العرب والطلعن في سيرة سيد العرب ونبي الإسلام الخ»
ونحن على ريبنا في صحة هذه الدعوى الجوفاء، نرى أن هذا الأسلوب
الذي يتكلم به المؤلف إنما هو أسلوب المبشرين والمشككين أنفسهم، حيث

يسوقون هذه التسميات لصاحب الشريعة الإسلامية لوضع حد قصير لرسالته العامة ، فهو عندهم سيد العرب و نبي الإسلام فقط ، ليس إلا ! ومعنى هذا أنه المبعوث للأمة العربية فحسب ، والمرسل الى المسلمين في حدودهم المحصورة والمسلمون في عرف هؤلاء هم الصابئة والذين كانوا على ملة ابراهيم واسماعيل من عرب مكة وما والاها ، وإذن فليس محمد بمرسل إلى اليهود والنصارى وأصحاب الشرائع القديمة الأخرى ، وإنما هو نبي العرب ورسول المسلمين فقط ، أو « سيد العرب و نبي الإسلام » كما يسميه مؤلفنا المبارك فهذه هي الخطة المرسومة لتحديد مركز نبوة محمد عند المبشرين والمشككين وإنك لتقرأها صريحة في كتب الآباء اليسوعيين ونشرات المدرسة الكاثوليكية كما تقرأها في كتاب « حياة سيد العرب » تأليف الشيخ حسين باسلامه ، لا فرق ولا امتياز ، فيا للبضاعة المزجاة يعرضها الشيخ باسلامه في معارض الفكر وفن الملاحظة والدفاع عن الإسلام ورد شبهات المشككين ! ويا لغفلة المؤلف عن أشد أغراض التأليف عنده أهمية واهتماما !

الآن فرغنا من نقد خطبة الكتاب أو فاتحته ، ونحن في ريب عظيم يخامر أنفسنا من أن هذا وحده ما يجب أن نلاحظه وننقده منها ؟؟ وهي بعد خمس صفحات من القطع الصغير ليس غير .

نقد المقدمة

عقد المؤلف مقدمة كتابه لبيان أصل العرب ومساكنهم ثم استرسل فيها حتى انتهى من الكتاب ، فأصبحنا لا ندري والله أين تنتهي هذه المقدمة

وَأين يبتدىء بعدها الكتاب ، ولا ندرى أكتابه كله عبارة عن هذه المقدمة أم هذه المقدمة هي نفس الكتاب ؟ كل ذلك محتمل وجائز ، وهذه أكبر ظاهرة من ظواهر الفساد وعقم الصناعة في فن التأليف ، فقد كتب تحت عنوان المقدمة كلاما يسيرا عن الجزيرة العربية وأهلها الأقدمين في ثلاث صفحات من الكتاب ، ثم عاد بعدها فعقد الفصول الآتية بهذه العناوين كما ترى : عاد - قريش - حضارة العرب - ملوك العرب - علوم العرب - ديانة العرب - التشريع عند العرب - أيام العرب - حروب العرب - أسواق العرب - أخلاق العرب - سيد العرب . الخ

فتعال أيها القارئ الكريم نتساعد على الفهم : أعاد وقريش وحضارة العرب وملوك العرب مما يندرج في الكلام عن أصل العرب ومساكنهم وتدخل في ذلك بقية الفصول الآتية أيضاً إلى فصل « سيد العرب » ومنه يبتدىء الكتاب ؟ وهل هذا ما قصده المؤلف بالوضع ؟ أم يبتدىء الكتاب من فصل « عاد » وتنتهى المقدمة في تلك الصفحات الثلاث ؟ اللهم إن هذا لبس فظيع لا يحله إلا كلمة يقولها المؤلف نفسه يتبين منها الخيط الأبيض من الخيط الأسود في كتابه الذي أصبح صاحبه بوضعه العقيم أشبه المؤلفين صفة براكي الأهوال ، الذين يقول عنهم القرآن الكريم : « لتركبن طبقاً عن طبق » وأصبح كتابه هذا أشبه بالوادي الذي يقول في وصفه رؤبة بن العجاج :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق مشتببه الأعلام لماع الخفق
يكل وفد الريح من حيث انخرق شاز بمن عوه جذب المنطلق
ناء من التصحيح نأى المغتبق تبدو لنا أعلامه بعد الغرق
فى قطع الآل وهبوات الدقق خارجة أعناقها من معتق

هذا حقاً أبلغ وصف للكتاب الذى نتربى نقده ، ومن شاء الاستزادة فى فهم هذه البلاغة فى الوصف ، فإننا نحيله إلى شرح هذه القصيدة أو هذه الأرجوزة البليغة فى وصف ذلك الوادى اللعين ، فى سلسلة أراجيز رؤبة العالية المطبوعة فى كتاب « أراجيز العرب » للبكرى .

وبعد فإن حضرة مؤلف « حياة سيد العرب » يقول فى مقدمة الكتاب إن كتب التاريخ والأنساب المتعلقة بأصل العرب وتقسيمهم تحتوى على أقوال كثيرة ، فقد لخصت منها ما يأتى بعد جهد كبير وفحص دقيق .

فإذا شاء القارئ أن يعرف ما هو كبر الجهد ، وأين هى دقة الفحص فى عمل هذا المؤلف فعليه أن يستعمل المنطق فيضع أمامه القضية الآتية :

يقول المؤلف قبل الجملة الآتية إن « الاعتماد - فى تأليف التاريخ طبعاً - عند المتقدمين على الكتب المدونة ، وعند بعض العصريين على الآثار القديمة »

هذه مقدمة القضية الأولى من استنتاجنا ، أما المقدمة الثانية فهى هذه الجملة التى يعتذر بها المؤلف نفسه أمام قراء كتابه فيقول « إن أمر التنقيب عقيم فى جزيرة العرب »

والنتيجة ؟ !

لنستخلص نحن النتيجة المعقولة بمنطقنا تاركين استنتاج المؤلف ، وعليه فإن النتيجة المنطقية هي ان المؤلف اعتمد طبعاً على الكتب المدونة ! فنقل من كتاب رواية ، ومن ثان مسألة ، ومن ثالث حادثة ، ومن رابع رأياً ومن خامس فصلاً برمته ، وهلم جراً ، وضم كل ذلك إلى غلافين أزرقين وسمى المجموع « حياة سيد العرب » ووضع تحته اسمه الكريم كمؤلف ، ثم هذا هو الجهد الكبير ، وذلك هو الفحص الدقيق ! فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر !

أما إذا شئت أيها القارئ الكريم أن تنصب من نفسك ناقدا فتحاسب المؤلف على ما كتب فإنك لا ريب داخل في عداد من يقول فيهم في صفحة ٩٦ :

« فعلى الماديين والملاحدين ومن على شاكلتهم أن يهدئوا على أنفسهم ويعترفوا بجحلامهم ويخففوا من حماقتهم ويتركوا عثم الكون لأهله ! ويدرسوا مواقع الجهل قبل كل شيء من أنفسهم ، ويقنعوا بفشلهم ! ويتجنبوا مكابرة الحقائق ، لأن العالم المفكر كلما توغل في العلوم ظهرت له بواسطة العلم أشياء عظيمة كبيرة لم يصل إليها علمه ، ولم تحط بها مداركه ، ولذلك يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه « كلما ازدددت علماً زادني علماً بجهلي ! ، ولكن ماذا نصنع في هذا الزمن الذي كثر جهله ، وخرج عن مبادئ الإيمان معظم أهله ، وأصبح الجاهل عالماً والأحمق مفكراً والمكابر فيلسوفاً والغبي استاذاً والمتهموس ، باحثاً والواقع حراً ، والجمع جاع خيلياً ، وشغلوا الناس بسفسطتهم وتكاثروا بغوغائهم ، فلا داعي منهم ولا مجيب ، ولا منصف فيهم ولا أريب لا يسمعون ولا يعقلون وهم عن الحقيقة غافلون »

قصة الانتقام الطبعي

بقلم محمد نور الجوهري

المطبعة الشرقية بجدة عام ١٣٥٤ هـ

نشطت حركة التأليف والأدب في هاتين السنتين نشاطاً جيداً محموداً يغبط ويدل على حياة ونهضة صحيحة ، ويبشر بمستقبل حسن في عالم الأدب ، فقد رأينا في السنة الماضية عنداً من طلبة المدارس يوالون اصدار مجموعات خطية دورية ضمنوها أحسن ما كتبوه ، وأجود ما فكروا فيه ، فكانت مثالا عاليا لما عند هؤلاء النشء من أدب وتفكير ، ثم أعلن لنا الاديبان الفاضلان عبد السلام الساسي ومحمد سعيد خوجه — وهما من غير طبقة الطلبة — أنهما سيقومان — على انفراد طبعاً — بطبع مجموعتين تحوى شعر أدباء الحجاز ونثرهم كما فعل الأديب أحمد عبيد في سوريا ، وكان غرض الخوجه جمع أدب الشباب من طبقة الآشئ والعمودي وشحاته وعرب ومن الى هؤلاء ، وغرض الساسي جمع أدب الناشئين الذين لم تزل تضمهم المدارس بعد ، وقد يضاف اليهم غيرهم ، وهما يعنيان طبعاً جمع نماذج حسنة من أدب أوائك وهؤلاء ، والعناية بشرها ونسجل في هذه الفرصة شكرنا لاهتمامهما المحمود ، مقدرين لهما هذه الجرأة والنشاط والغيرة الأدبية في هذه السبيل ، ونرجو لهما تحقيق هذا الأمل وظهور نتائجه .

والآن في هذا الشهر أبرز فعلا إلى عالم المطبوعات حضرة الأديب

الفاضل محمد نور عبد الله الجوهري خريج المدرسة الفخرية بمكة قصة باسم « الانتقام الطبيعي » ، وقد تفضل باهدائنا إياها فنحن شاكرون له هذا الفضل الجميل .

وقد قرأناها المرة الأولى وهي في تسع وثلاثين صفحة من قطع صغير فخرجنا منها بنتيجة لا تتصل بالفن ولا تصعد فيه إلى مرتبة ترضى ذوق الأديب الممتاز ، غير أنه بالنظر إلى شخصية الكاتب ومبلغ محصوله من هذه المعارف المحدودة التي تسمح بها مدارس الحجاز الابتدائية ، لا سيما التي منها في صف المدرسة الفخرية ، وهي مدرسة لم تبلغ الحد الوسط بالنسبة للمستوى الذي فيه مدارس الحجاز ، وبالنظر أيضا لأن هذا القصة هي باكورة عمل هذا الكاتب الفاضل ، فإنها لا تعاب فيما جاءت عليه من هذا الثوب الذي أبرزها فيه .

أما هيكل القصة فهو ما يأتي : شاب من أهل الطائف يدعى « نجيبا » ترك له والده ثروة بددها وداراً باعها أخيراً لأن الحاجة أُلجأت ، وخانه صديقه « سليمان الأنقرى » فسرق قيمة الدار وسافر ، واكتأب الفتى حيناً ثم ساقته الظروف إلى طبيب جمع — فيما يؤخذ من حديثه — بين الطب والفقه وسمو الخلق ، فبث له نصائح ودروساً في الحياة ، ثم زوجه بابنته ، فشنى الفتى من آلامه النفسية ، ثم التقى صدقة بصديقه الخائن في مستشفى أجياد طريحاً مصاباً بالزهرى ، وكان هذا هو « الانتقام الطبيعي » منه لما جنته يده .

ويلوح من هذا الهيكل أن للمؤلف عقلية الروائيين ومقدرة المناطق

وإن كان أسلوبه في الرواية جد بسيط ، غير أن أسلوبه في سرد الحوادث أسلوب طبعي محكم معقول يدل على ذهنية قوية تعرف كيف تربط المواقف بعضها ببعض ، وكيف تخرج النتائج الطبيعية من مقدماتها الطبيعية . وفي القصة تجدد « المثل الأعلى » حسب ما تعرفه غرائز السكاتب ، ووجود « المثل الأعلى » الذي يجب أن يقيمه كاتب القصة — أية قصة كانت — ضروري لازب ، وهو في هذه القصة ، الرجل المتين الخلق ، الأمين على صناعته ، المتمسك بأهداب الدين والاستقامة ، المتسامح الذي يصفح عن الشر ويسعى لإنشاء سبل الخير .

وقد راعنا في الرواية — أو القصة — عدة نواح في فكرتها ، ومن أجل ما استفز إعجابنا تنديد المؤلف بالدجالين والدجالات من المتطهين والمتطهيات الذين يقصد هم الناس للاستشفاء على اعتقاد أنهم « من أولياء الله » وما هم من أولياء الله ، ولكنهم قوم نصابون أو نشالون « ص ٣٢ » وكنا نحب أن يقف المؤلف عند هذا الحد في وصفهم ، غير أنه وصفهم أيضاً بالشرفاء بعد كلمة النشالين ، ولكن أنى يعرف النشالون والنصابون طريق الشرف ؟ وكيف تهتدى إليه نفوس الدجاجلة الآثمين ؟ فإن الشرف أبعد ما يكون عن هذه الطبقة من النفوس الشريرة التي تخدع الناس باسم العلم والدين معا ، ولكن يحسن بنا أن نقول كلمة المؤلف تأويلا حسنا أغلب الظن عندنا أنه هو نفس المعنى الذي قصد إليه ، وذلك أن الدجاجلة « شرفاء » في ظاهر أمرهم فحسب ، أى أمام العدالة التي لا تصفهم في صف المجرمين ، فهم لا يطولهم عقاب القانون الذي لا يضع يده إلا على الجرائم

المكشوفة ، أما تلك الجرائم المنمغطة فإنه يمر بها غير مكترث ، ولكنها هي في الوقت نفسه تنفث سمها غير مكترثة ! ولكم في الحياة من مواقف دقيقة يرتكس فيها قانون العدالة بحقائق مستورة لا يباح التعرض لها إلا إذا برزت في الشكل الإصلاحي .

وليس هذا الموقف بأروع ما في الرواية ، فهناك موقف آخر تتغلب فيه الإنسانية الكبرى في شخص « نجيب » بطل القصة على رذائل الحقد والخيانة والانتقام الانساني فتسحق بأقدامها هذه الشرور ، وتقف في وسط زوابعها الثائرة كالطود الأشم لا تؤثر فيه الاغصير ، وذلك عندما يزور البطل « مستشفى اجياد » فيجد صديقه القديم سليمان الذي خانه مريضاً بالزهرى على أثر علاقته بإحدى المومسات ، فتسل أحقادهم . قلبه الكبير ويقف إزاءه راحماً راثياً عافياً يقول ! « شفاك خالق الشفاء ، وأعاد إليك صحتك ومتعك بها . وخذ هذا » يريد مقداراً من النقود ، واقض ماتشيه وتحتاجه ، ثم يخرج من المستشفى قائلاً في همس ! (هذه هي أضرار النجاسة وعاقبة الاستهتار والتلاعب بالعفة ، وهذا هو الانتقام الطبيعى الالهى قبل الآخرة ! .

وفي الرواية نظريات اجتماعية سديدة من لباب علم الاجتماع ، ومن لباب الدين الاسلامى الحنيف ، يبثها المؤلف في أسلوب خطابى يعرف طريقه إلى النفوس ، كمنظريه جواز رؤية الزوجة قبل العقد عليها ، ونظريه وجوب تسهيل الزواج على الأعزاب بالرضى ييسير المهور ، وفيها نصائح صحية في قالب روائى مقبول .

ولا تخلو القصة من هنات لغوية معدودة يحسن بالمؤلف أن يتداركها في الطبعة الثانية ولو بواسطة أحد أساتذته — فإنه طالب كما أشرنا — ويحسن بنا أن ننبه إليها بهذا الإيحاء، لأننا في موقف تشجيع واغراء له بالسير في سبيل الأدب.

ونريد هنا أن نلفت نظر أولئك المتعصبين الذين لا يرون في مثل هذا الأدب الجميل ما يغذى إيمانهم بوجود الأدب القوي في أمثال هذه الآثار. ولكنهم ربما كانوا معذورين في ذلك، لأن ماسكاتهم محدودة، فهي تضعف عن استكناه معالم الأدب القوي وأعراضه بين القوالب اللغوية النائرة.

ذكریات...

عزیزی الأخ...

فضضت الغلاف طبعاً وبدأت تقرأ. الخط غير مألوف لديك فيما اعتدت قراءته من الرسائل التي ترد إليك، واللهجة أيضاً لعلها غريبة عنك بالقياس إلى ما تتولى تلاوته من أوراق الخطاب، فتنزل بنظرك إلى التوقيع ثم تعود للقراءة. أجل يا أخي هو ذاك، ولم أبادرك بالكتابة؟ ولم لا تكون ذكراك من مشاغلي؟ ففي الوقت الذي ينصرف فيه إلى تلمس ملاهي الحياة أو شواغلها أو مهماتها مما يحفز النفوس إلى عيشة محتومة متشابهة المسالك دافعة إلى الاستمرار في مجاريها، لا تحيد بك الصدف أن تجد انساناً يذكر - في هذا الصخب - صور حياة له غابرة طوت بين صفحاتها أحاديث أصدقاء كان ينهل منها لذيذ الأنس والتودد، ويستشف من ملاحمها الجميلة ما تحمله النفوس من خلق رحب وثيق الصلة بحياة الجد.

وهيها بساطة أن أكتبك الآن في موضوع الذكرى لما مر! فما أروع أن تكون الحياة بسيطة على الأقل، فالبساطة معنى لا يتصل بالسذاجة البلهاء فيما أظن إلا في المظهر، وقلما يؤخذ اتحاد المظاهر في الأشياء دليلاً على اتصالها في الجوهر.

ترى أتذكر أحاديثنا على شاطئ بحيرة «باب جديد» مع الأستاذ...؟ وأستثير فيك الذكرى بنوع خاص إلى حديث كان نصيبه من الجد وافر إذ كان يتناول فلسفة الفرق بين الاتقان والكمال، وكنت ترى أن اللفظة

الأولى أوفى استقصاء لمعنى « التمام » من الثانية ، وتبسط رأيك فى صراحة وتشرح وتستدل ، بينما أخالفك النظر عاكسا ، ويطول بنا الحديث ويمتد الوقت وتطبق عجاجة الليل والاستاذ يدخل سيجارته ويحرق بعينه ، وهو فى نفس الوقت لا ينسى أن يعزف موسيقاه الخاصة عند اللزوم ، وكما لهذه الموسيقى من أثر على الجو فى حالة ركود الهواء ، ثم يهجم على الموضوع فيميل إلى رأي ويحل المشكل حاكيا أناة المفكر ، ووازن العاقل ، وجرأة البطل ، ومنطق العالم ، فى بطن حديث المدخن ولطف الصديق ، ثم تختم الجلسة وتقوم . وليست بالمتواترة ولا الكبيرة هذه الجلسات ، ويكفى لبيان ندرتها أنى لا أذكر الآن منها - غير مامر - إلا جلستنا فى أحد الأيام بعد مغرب الشمس ، وقد هم شبح الضياء أن يفنى فى الأفق ، وأوشكت حلوكة الليل أن تدب إلى وقدة الشفق المبسوط على صفحة الغرب ، وكنا فوق رابية صغيرة فى خارج « باب مكة » نفيس فى نقد الأزياء الحجازية ، ونستهجن فيها عدم التناسب ، ويقر الرأى أخيرا على استحسان الزى الافرنجى الخفيف ، وأريد أن أقول إن الاستحسان كان للشكل فقط لا للاتخاذ ، وأنت خليك أن تميز الفرق الدقيق بين استحسان الشكل لخفته وسهولته ، واستحسان اتخاذ بالنسبة لنا نحن الذين ما زلنا نقوم ونقعد للنظريات ، ومنها نغذى حياة لم يحن بعد أن يغذيها « فن العمل » وقد كادت تتضخم « بفن الكلام »

وبعد فإذا عدونا ذكر هذه الأحاديث فإنى أعبطك على الالتذاذ الضئيل بحياة التنزه فى « باب جديد » مع . . . صديقنا وصديق الطبيعة التى ما يفتأ يناجها كل يوم على شاطئ بحيرته حيث يزخر أمامه البر الفسيح

في شمالي « جدة » وشرقيها بما يواثم طلب النفس راحتها بعد بذل مجهودها وتقيدها بما لا بد منه من مشاغل العيش، فتمتلىء العين بحركات المتزهين في منطلق الهواء غادين ورأحين، وسكون الماء وزرقته الكامن فيها معنى أساس الحياة الذي يقول عنه القرآن الكريم: « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وهنا تكتظ النفس بصور تود على اثر وضوحها ان لو يتباح لها النظر إلى ما وراء حركات الأمواج الهادئة لتدرك كيف تدب من هذا الماء إلى الحيوان والنبات والانسان حياة طبيعية تدع المرء يغوص بفكره في عوالم الانتباه فيزداد شعوره بمقدرة المبدع العظيم الذي أعطى كل شيء خلقه.

وأخيرا أودعك يا عزيزي مكررا اليك وإلى الأخ ... الذي أرجو أن تتلطف في إهدائه تحياتي بدون أن تزعجه بذكر موسيقاه الخاصة الآنفة الذكر، وإذا تفضلت بسؤاله: لماذا لا يرد عليّ حين أكتب إليه، أكون لك من الشاكرين.

شئون

أخي فلاناً

كيف رأيت أثر الحياة الأدبية في كتاب العقاد الجديد ؟ وكيف أقيمت
مقدرة هذا الأديب الحى على فتنة النفوس بقوة ساحرة يذرهما قلبه الجبار
سواء حين ينقد مهاليس الأدب ، أو حين يتغنى بالحياة فيعرض جمال
ما فيها على القارئ ملهوساً مكبراً ، أو حين يعالج مواضيع الفكر بصبغة
الفلسفة الصادقة فيوغل في البحث رابطاً بين أوصاله ؟ وكـم بين أمثال هذه
المتع القوية التي تواجه فيها الطبع فتشق بتفوق مقدرها ومتانتها لا شىء سوى
رهف الشعور وقوة الذهن وعمق النفس ونفاذ البصيرة ، وبين كثير
من الأكداس المموهة بما لا حياة فيه سوى الاصطناع وإحكام التقليد
وفساد الذوق وقصور الهمة عن الاعتماد على قوى النفس ، وأعنى من ترى
حولك من قررة المتأدين الذين إذا أعوزتهم سلامة الطبع ومقدرة الفكر
على تصوير المعانى ففاتهم بذلك قوة الفن صاروا إلى تقليد الكتاب
في أقوالهم ، وانتحلوا لأنفسهم الفقيرة أفكاراً وتعايير سبقهم إليها أصحابها
فما يزيدهم هذا التقليد إلا طمسا في النظر ، وهزيمة في معركة الحياة النفسية
وانحدارا بالنفس إلى أسفل دركات الخذلان ، ولا يكون فلان بالنسبة لهم
إلا بطلا عظيماً ، إذ هو يترفع بنفسه عن إسفاف الخالعين على أنفسهم
صفات الآخرين ، وذلك بالرغم مما له من الرأس الغريب الذى انهكته
الأقدار ...

هذا الرأس وصاحبه شيء ذو قيمة يقدرها الفكر إذا قيس إلى أولئك
المفلسين في الأدب ، وخذ لك مثلاً منهم فلاناً ، الإنسان الميكانيكى ،
أو الأديب على نفقة السرقات .

ولعل في هذا التعبير « الإنسان الميكانيكى » شيء من الغموض ، فلكى
أشرح لك معنى هذا اللقب ، أقول إن الأديب الحقيقى هو الذى يدير بنفسه
حركة الحياة ويفكر بنفسه فيما حوله من المظاهر التى يستتج منها
المعانى والصور والأفكار ، كما يستتج الشاعر تناسب الجمال وتشابك أجزائه
فى الطبيعة مقدرًا ذلك السحر ، محسباً بروعته التى تملك عليه نفسه فيفيض
عن تلك النفس الحية أثر ما أحست وما فهمت من محاسن الطبيعة وجمالها ،
ومن روعة الحياة وهولها ودقة ما فيها من السحر . أما صاحبنا هذا فحسبه
أن يأكل من مائدة غيره ، فهو حائر فى الأدب ، لا يدرى وقد عجز
عن ملكة الاستقلال : ايتقمص حياة المازنى أم حياة ميخائيل نعيمة أم
حياة الرافعى ؟ أم يمسخ نفسه عقداً آخر ، أو منفلوطياً جديداً ، أو
« أنا تولا عربياً » جاهلاً ، ينقصه علم « أنا تول » الفرنسى وأدبه ولباقته ، فقد
عذب المسكين نفسه وهو يقلبها فى عدة مناصب شخصية مستعارة يمثل فيها
جهلاً ، أحد هؤلاء أو هؤلاء جميعاً ، أو جبران وحده ، فيأخذ من هذا
تعبيراً بجملة يلوكة بالفاظه حتى يمرن لسانه عليه ، ويختلس من غيره فلسفة بتراء
لا يدرى مداها ولا بعد غورها ، فيبنى حولها جملاً يؤديها مكررة ناقصة
كسيحة ، وأحياناً متناقضة ، وينتهب من آخر بعض أخلاق تقليدية
قرأها عنه ، وينتحل لنفسه حياة وفكرة كانت لهذا أو لذاك ويقدمها إلى
أصحابه الذين لم تتح لهم أوقاتهم الاطلاع على آثار أولئك أو غيرهم ، وأظههم

لو اطلعوا لكانوا أوثق صلة بكرامة النفس من أن يقفوا موقف القردة
فيدعون ما ليس لهم منه شيء إلا اللجوء إلى المحاكاة ، ويألها من حياة مسخاء
أحربها أن يبصق في وجه صاحبها وأن يرصد اسمه في سجل البيغاوات ،
فقد فاتته ميزة الانسان في الحياة فراح يتطلبها بالتقصص فما أدرك
غير الامتهان .

وما ظنك بمن ينتحل لنفسه كلام الآخرين متوارياً عن أعين الناقلين ؟
ألا يكون أقرب شها بالقرد الذي أبصر النجار أو النشار يشق الخشب
فغافله وصنع مثله فجرى له ما جرى مما ترويه الحكاية المشهورة ؟

كنت مرة مع أحد عارفيه فجر الحديث إلى ذكر رجل ثقیل ، فقال هذا
العارف يبدى رأيه الخاص فيه : أقول لكم الحقيقة : إن رأيي الخاص
في الحياة هو أن أثقل الناس عندي وأضناهم لقلبي دميم يتحالي ، وذكي
يتغابي ، وعجوز تتصابي ، فانفجرت ضاحكا وبدته بما لم يكن في حسبانها
وقلت أهذا رأيك الخاص في الثقلاء ، أم هذا مسخك لشعر شاعر شهير ؟
فوجم وقال بجرارة : من ؟ من ؟ أى شاعر هو ؟ قلت : العقاد ، انظر ديوانه
صفحة ١١٢ ، فهت لأنه لم يطلع ، وقال يا أخى أنا سمعت هذا من « فلان »
فهم قهت مرة أخرى حتى ملت إلى الراء ، وقلت : حسن ! فكيف جاز
لك أن تنسبه إلى نفسك ما دمت سمعته من فلان ؟ فأجاب : ما دام فلان
وهو من الأدباء خدع نفسه ونسبه إليها ، فأحربى وأنا لست من الأدباء !
وبعد فقد أطلت عليك الحديث . وأخيرا أرجو مواصلة برسائلك
والسلام .

مناقشة...

عزيزى !

جديدة هي المناقشة التي أثمرتها حول قول بعض الكتاب : « فلانة بارعة في الجمال » ، والتي كانت قد أوصلتك إلى حيث وجدت ذوقك يزور عن اقتبال هذه الصورة المستنكرة من التعبير ، ويعتبرها مقبحة من مقاييس الفكر أو موقفا للكتاب أجدر ما يقال فيه انه دليل الغفلة والذهول عن وضع الكلمات مواضعها التي يؤخذ منها مدلولها بوضوح وصحة ، إذ ما معنى أن تبرع الفتاة في الجمال ، وما الجمال سوى رداء الطبيعة المنسوج مع الدم ؟ وليس في مستطاع الجميل أن يتصرف فيه إلا إذا قصد منه جمال الأصابع والتحاسين الذي انما يرجع الأمر فيه إلى مقدرة صاحبه .

هذا الفكر جد سائح ، واني أشاركك الاستنكار ، فأعد من يقول ذلك كمن يقول : ، فتاة ماهرة في الطول ، أو قديرة في القصر أو حاذقة في ليونة الأصابع ، كأنما الطول أو القصر أو ليونة الأصابع أو الجمال العام رقصة من رقصات « الشارلستون » أو لعبة من لعبات « التندس » أو درس في الرياضة أو الموسيقى أو تدبير المنزل يتسع فيه المجال « للبراعة » والمقدرة والحدق وهذا هو مكان الخطأ في استعمال تلك الصورة من التعبير .

هذا الاعتراض جميل جدا توجيهه على تلك الفئة من الكاتبين ، وهو اعتراض في مرجعه الذوق ، ولكن أي ذوق ؟ إخواني أحسبه الذوق

الذى لم يتغلغل بعد فى اكتناه أسرار اللغة الرائعة، وإن اللغة العربية لأسراراً رائعة أيها الصديق ! ترتبن أحياناً بحرف واحد كحرف الجر مثلاً يجعل الكلمة تختلف فى أداء المعنى ما بين تعبير وآخر . فذوقى وذوقك فى مج هذا التعبير قد وفقا التوفيق كله ، ولكن من لنا بمن يضمن سلطة الذوق على اللغة فى غير هذا التعبير ؟ ولنمش خطوة فى متابعة الذوق فى منطقة نجدته ينهزم أمام سلاح اللغة الماضى عندما ترفع كلمة « فى » من التعبير السابق فنقول : « فتاة بارعة الجمال » أو « ذات جمال بارع » ، وليس بغائب عن فطنتك فرق ما بين هذا التعبير والتعبير الأول ، فبراعة الانسان فى الشئ غير براعة الشئ بنفسه ، فالأولى هى نفوذ الانسان فى استحصال التفوق فى أمر ما ، والثانية تؤدى معنى آخر صحيحاً لاصلة له بالنفوذ الشخصى ، وإنما يكون هنا مرادفاً لمعنى الجودة الفائقة البريئة ، ويأخذ التعبير فى هذه الحالة مكانه من الصحة مثل ما نقول : « نصوع البياض ، وسمو الحقيقة ، وقوة الخلق ، وبروز الشخصية ، وتفوق الذات ، وغزارة المادة ، واشتداد الطبع » ، فكل هذه التعابير من نمط « براعة الجمال » الملمحوظ فى قولهم : « فتاة بارعة الجمال » ، هذه البراعة التى انما معناها جودة الجمال الفائقة وظهوره فى شكل يستحق الإعجاب . ألا ترى هنا معنى ان الذوق خضع للغة ؟ فإذا جاء الذوق يتفلسف هنا أو يحاول رفض هذا الاستعمال أيضاً ، وهو جار على نمطه الصحيح ، تصفعه الفصاحة وترسل اليه بهذه الأمثلة الهائلة من جحفلها القوى المسلح بسلاح الصحة وسلاح الجمال نفسه ، فترغمه على التسليم والانحدار ، أو تمدّها إذا شاءت بما من حقه أن يجعل فلسفة الذوق هذه أضحوكة لأنها لا تكون حينئذ إلا فلسفة المعابثة والخواء .

هل يتازم الأدب؟؟...

جاءتني الرسالة الآتية من مستفسر أديب لم يوضح توقيعه الكريم، وإنما كان امضاؤه متشابك الأحرف، متلاحم الأجزاء، متعاضلا غير مستبين على حالة لم أستطع أن أحلها، لما فيه من تعقيد وتعاضل، وكان واجبا أن يكون غير ذلك ليكون الجواب أكثر دقة ووفاء وسعة، فعلى قدر السؤال طبعاً يكون الجواب وإذا تستر السائل واحتجب فن الطبيعي أن يحتاط الجواب ويمشى الهويني « كما يمشى الوعي الوجلي ! »

وبعد فلا نضيع الوقت عبثاً في المقدمة. قال السائل في رسالته : « هل تعتقدون بوجود أزمة فكرية وأزمة أدبية في الحجاز ؟ » ونقول في إجابته :

« الأزمة الفكرية » و « الأزمة الأدبية » موجودتان، وهما يتولدان فيما أظن من الأزمة الهائلة أزمة النفس الإنسانية، وإن شئت فقل أزمة الإحساس المطبقة، حيث يؤمل الإنسان ويتمنى، ولكن لا يتاح له تحقيق آماله، ونيل أمانيه، وحيث يجب أن يقدم على الرغبات المستحبة، والمقاصد الكبيرة فلا يستطيع إلا الإحجام والوقوف، وحيث يبحث فلا يهتدى، ويهرب فلا يلتجئ، ويريد أن يستخدم استعداداته النفسية فلا يتمكن.

إذا استحكمت هذه الحالة في فرد أو في جماعة فهنا أزمة الفكر وأزمة الأدب، أو ما تسميه « الأزمة الفكرية » و « الأزمة الأدبية » وإذا آمنت أن هنا من النفوس ما يشكو هذه الحالة ويرتاح إلى تحطيمها فآمن أن هنا

أزمة فكرية وأزمة أدبية ، لأن الفكر مظهر من مظاهر النفس ، فإذا أزمّت النفس أزم الفكر ، والأدب إحساس وتعبير ، فإذا تضربت النفس الانسانية تضرب احساسها ونضب معه تعبيرها ، وعندما تكبر النفس تكبر أفكارها وآدابها ، ومتى ضاقت وصغرت صغرت الأفكار أيضا وصغر معها الأدب ، ولهذا فإن أرقى الأمم إنما هي أرقاها تفكيراً وأدباً ، واحطها هي أحطها فكراً وأدباً ، فلا ترج من الزنجى والبربرى وساكن الاسكيمو وما إلى هؤلاء من الهمجيين والمتوحشين ان يكون مفكراً أو أدبياً راقياً لأنه منحط فى نفسه ومرجع هذا الانحطاط تأخر محيطه ، وتربيته وأحوال معيشته وصغر آماله ، ونضوب أمانيه ، وانحلال أخلاقه ، وانحداره إلى همج متغور فى همجية النفس والعقل لا يسمح له بالصعود إلى المكان المشرف على رياض الحياة ، فهو لا يعتد بنفسه ولا يشعر بكرامته العامة العليا ، فيدشا مع هذا عدم اعتداده أيضا بطرائق الفكر والاحساس ، فهو فى أزمة هائلة ، وقس على الفرد الامة بأسرها ، فالرجعية والهمجية فى الأمم والافراد هى « ترمومتر » التفكير والأدب ، من صعوده وهبوطه يتبين مقدار درجتهم ونسبتهم ، فإذا كانت همجية الامة هابطة إلى أقصاها ، كان تفكيرها وأدبها هابطاً معها والعكس بالعكس ، وفى مكنتك أن ترجع إلى ما كتبناه فى حديثنا مع السائح الاندونوسى المثبت فى هذا الكتاب حيث كنا نهيء الجو للسائح لينطق بما نحب أن يدور عاينه حديثه لتكون أجوبته صورة صحيحة للفكرة التى نقصدها عن الحياة الفكرية ، فإنك واجد فى تلك الأجوبة المتعددة جواباً مبثوثاً تستفيد منه فى موضوع سؤالك القيم .

وبعد فى ذكائك أيها السائل الأديب ما يلائم هذا الإيجاز وتقبل
احترام المخلص .

القديم في الجبريد .

(١) الشيطان العاشق

— حبيبتى ! حبيبتى ! ألا رحمة بالله أيتها اللهب الجميل ! رقى لمن لو فارقك لحظة لسدت عليه منافذ الحياة السعيدة ، ألا رحمة بالله أيتها الحبيبة الطاهرة .

— من ؟ من ؟ وى ! من أين هذا الصوت الغريب ؟

— كلا لا تخافى ياسيديتى العزيزة ! فإن حياتك أئمن على من نفسى المعذبة

— ويحك من أنت ؟ أظهر ! تكلم عن نفسك .

— أنا بين يديك ، قريب منك ، هدئى روعك ، عدينى بالثبات والتؤدة
أظهر أمامك بكل وداعى وإحساسى . لا تستعجلى .

دارت هذه المحاورة فى غرفة النوم وقد أرادت « عائشة » الاستلقاء على سريرها ، وكان مكلمها صوتا خفيا تسمعه ولا ترى له من شخص ، ولقد كادت المسكينة أن تهلع من الوجـل ، لولا أن تداركتها رحمة الشجاعة والعقل وساعدتها كلمات « الصوت » الأخيرة على الريث والأناة عند ما قال لها :
عدينى بالثبات والتؤدة أظهر أمامك بكل وداعى وإحساسى ، لا تستعجلى ،
ولكن « الصوت » لم يبر بوعده ، ولم يزل محتفيا عن عين « عائشة »

(١) روى هذه القصة بأسلوب القدماء العلامة الشيخ داود الانطاكى مؤلف التذكرة فى كتابه « تزيين الاسواق » الطبعة الثالثة بالمطبعة الازهرية سنة ١٣٢٨ ص ١٨٢ فاخترنا نسجها فنيا تلقينا للأدب الجليل بالأدب القديم .

التي حمد الدم في عروقها عندما فاجأها هذا المتكلم الغريب الشأن ، غير أنه كان رحيما بها فلم يشأ إطالة خوفها ففتح الباب ودخل ووقف أمامها ضاحكا فإذا هو زوجها .

— وى زوجى ! ألم تسافر فى المساء ؟ كيف ولماذا عدت ؟ وما حملك على تغيير صوتك قبل لحظات ؟ لقد كدت أجن لولا ان تداركنى الله .

— أجل سافرت ، ولكنى غيرت رأيى فاغفرى لى خطيى يا « عائشة » ، لقد روعتك من غير أن أريد ، لأنى أردت أن أمتحن شجاعتك

ولكن فى هذه اللحظة دخل زوجها الحقيقى فجأة ، وكان قد طرأ له ما تركه يعدل عن سفرة المساء ، والتقى الزوج « والمجهول » فتبادلا المحادثة بسرعة وصراحة وعزم .

فقال الزوج « فى انفعال » :

— من أنت ياسيدى ، وما شأنك هنا ؟

فأجاب المجهول « فى صرامة » :

— اسمع وتشجع . أنا جنى من بنى « الشيطان » لى ليلة ، ولك ليلة ، وإلا قتلتك ، فإنى أحبها . ولم ير الزوج المسكين بدا من الموافقة والاصطحاب مع هذا المجهول ، والإذن له مرغما بدخول البيت والمبيت مع عائشة إلى أن يصرفه أمر قوى .

وجاءه ليلة يقول :

— إنا معشر الشياطين نسترق السمع بالنوبة ، وهذه ليلتى ، فهل لك أن

وتهددنى بالضرب ، ففضيت ، وأنا على أسوأ حالة من البرد ، والجوع
فدفعتى المساء إلى عجوز عليها سيمة الخير والشرف ، وإلى جانبها فتاة فاتنة
فجعلت الفتاة تسخرنى قائلة :

— هل لك إذا نام الناس أن تدخل علىّ فأحدث معك ؟ فإنى لم

أر أحسن منك !

فأجبت فى يأس وتأثر .

— دعينى من هذا .

وأقبل أبوها وإخوتها ، فناموا بإزاء الخيمة وانتصف الليل ، فأغرانى

الشبع والدفء فدخلت الستر ، فلها شعرت بى الفتاة قالت :

— من تكون ؟

قلت :

— الضيف

قالت :

— اخرج أيها (الهولة) لا حياك الله ولا صبحك ! فخرجت فزعا

فتلقانى الكلب الرابض على باب الخباء يريد أن يفترسنى ، وأنا أرده بعصاى

حتى علق بردائى ، فتجاذبنا حتى سقطت أنا وهو فى حفرة لا ماء فيها

واضطربت هناك فى رأسى الأفكار المريعة والتصورات القاسية .

استعرضت أدوار الحياة التى مرت بى ، والتى تمر بكل انسان يصاحبها

فرأيت الطفولة - طفولتى وطفولة الآخرين - مرحة ساذجاً لا يعقل

(١) هو ما يخوف به الأطفال ، كالتوله ويقال أيضاً لكل كرهه المنظر

ولا يتدبر، ورأيت الصبا والفتوة أخيلة وسبعة متموجة، ليس فيها غير الحلم العذب والأمانى الطائرة، ورأيت الشباب آمالا وتفكيراً واستعداداً للخوض في فلسفة الحياة، واستقبال ظلماتها الداهمة وألغازها القتالة، وتهجماً نشيطاً على حل تلك الألغاز والرموز، ولكن لا فائدة. فما قيمة الحياة إذن، وهي تمر بالمرء في جهل مطبق، وغرور باطل، وشقاء عقل وأحاساس؟

وشعرت «سمبس» بسقطتي فأقبلت حتى إذا رأته قالت:

— وددت والله أن أجعلها قبرك، لولا خشية الضرر.

وأخذت توبخني، ثم أدلت لي حبلاً وقالت:

— ارق.

فحين قاربت فم الحفرة انهارت من تحت أقدامها فسقطنا جميعاً.

فلما كان الصباح، وافقدوها، فلم يجدوها. وكان أبوها عارفاً بالقيافة.

أقبلوا بالسيوف والأحجار على قتلنا.

قال أحد الإخوة:

— اقتلوا الفاجرة! ها هي ذى هنا مع الضيف الخائن.

وقال الثاني:

— بل اقتلوهما معا، ولنبدأ بالخبيث.

وقال الثالث:

— ويمثلاً بعد القتل شر تمثيل.

وقال الرابع:

— أهيلوا عليها التراب وأتبعوه بالحجارة

وقال الخامس:

— السيف ! السيف !

فقال الأب:

— إنى أعرف من ابنتى مالا ريبة فيه . قفوا

فأمسكونا وأخرجونا فأقبل على أبوها ، فقال :

— أفيك خير لأزوجك ابنتى اتقاء الشهرة بمالا نريد ؟

فقلت حين شمنت الحياة :

— وهل عندى إلا الخير ؟

فزوجنى بها على خمسين بكرة وأمة وعبد ، فعدت إلى أبى فأخبرته

بذلك فأحضر المهر فأقبلت به اليهم ، فأخذوه ، وبنيت بالفتاة .

« لميس »

رواية تاريخية ذات أخيلة جديدة

سنة ٧١٧ م - ٩٨ هـ

كان الوقت صدر الصباح المشرق ، عندما دخل سليمان بن عبد الملك
الأموى غرفته الخاصة ، غرفة الحرم ، حيث كانت لميس إحدى حظياته
تنتظره لتحدثه في أمريهما ، وكانت دمشق ، المدينة التي هي مسرح هذه
الرواية ، وقاعدة ملك الأمويين مأبجة ساعته بالجموع تودع الجيش المؤيد
المستعد للذهاب ليفتح القسطنطينية، وكان الشعب نشوان للفكرة التي أخذت
في طبقاته أسمى مظاهرها ، ولم تخطئ طريقها أيضا إلى « نفس » لميس تلك
الفتاة الجياشة بالعواطف والأفكار ، فوقفت تنتظر سيدها العاهل العربي
لتحييه تحية الصباح ، وتصافحه منهته بهذا المجد الجديد .

مر سليمان من بهو الغرفة بعد أن قضى موقفه في شرفة القصر
يستعرض جيشه إلى حيث وقف في غرفة النساء ، وهناك دخل عليه ابنه
أيوب ، وهو قطعة من الجمال الانساني المجسم ، غلام مرسل الشعر إلى أقصى
كاهله تبسم في ابتسامته الحياة ، ويتنفس من نظراته الحسن المغمور بجرأة
الطفولة واندفاعها وتفتحها .

وقف الطفل الجميل يجاذب والده الحديث عن رحلته الحربية .

- أبي تأهبت كما أمرت للسفر إلى القسطنطينية مع عمي مسامة .

— سر على بركة الله يا أيوب، وستجد في كنف عمك العز العائلي الذي لن يفارقك بمفارقة القصر، كما أنك ستعرف في هذه الرحلة أموراً تكون لك ذخيرة الرجولة ودرية المستقبل .

— ولكن يا أبى عمى مسألة يقول إنه لن يجعلنى فى مقدمة الجيش .
— إذن .. ؟

— إخاله سيجعلنى فى القلب أو فى الساقة أو فى أحد الجناحين .

— وما يضرك ؟

— لا يضرنى شيء ألبتة ، ولست أريد المقدمة ، لأنى ابن أمير المؤمنين ولكن ليتاح لى أن أخبر بنفسى للمرة الأولى كيف تكون ملاقات العدو وجهاً لوجه، ولأعرف ما لذة الغازى المغامر الذى يتقدم فى طلائع العسكر غير مستكين إلى الاندماج فى هيكل جيشه كفرد يتوزع ما فى نفسه من قوة الإقدام على الأفراد الذين أمامه ومن حوله .

— أنت تعلم أى أيوب أنك الآن جندى لا إرادة له أمام نظام الجيش ، وأمر القائد ، خيشماً يضعك قائدك فذاك موضعك ، الذى يجب عليك أن تكون فيه من غير أدنى مراجعة ، فإنما هى الطاعة العمياء يفرضها نظام الجيش على الجند للقواد .

— نعم يا أمير المؤمنين هو كذلك ، وإنى أنا الجندى الحقير الطائع الذى لا يخالف أمر الخليفة ولا أمر قائد الجيش، سأكون عند ظنك بى ، فلتأمر بما تريده، ولتكن مشيئة عمى مسألة قائدى العظيم واستودعك الله يا أبت .
-- أستودعك الله .

قال الأب ذلك وقبل الطفل بين عينيه .

وقف سليمان بعد خروج طفله أمام المرأة بجانب « لميس » يتوسم أسارير وجهه الجذاب تحيط به هالة من المجد العربى ومجد الأبوة المنسجمة وقال بصوت مرتكز

— أنا الملك الشاب !

وكان الملك السابع من الأسرة الأموية يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمره^(١) ، فهو إذن فى ضحى الشباب المختمر ، وفى منبثق الرجولة الناضجة ، وكان يتمتع بجانب كبير من الجمال الجذاب .

قالت لميس ، وكانت تلاحظ حركاته فى عاطفة عميقة .
— أجل يا أمير المؤمنين ، أنت نعم المتاع لو بقيت لك هذه البشاشة خالدة ، ولكنه لا بقاء للإنسان ، ولقد تتجنبك كل المعاييب إلا أنك عرضة للفناء

فأجابها الملك :

— نعم يا لميس أن هذا لمن نكد الحياة على ابن آدم ، ولكن ما دام فى العالم قلبان متجاوبان ، يتبادلان الخفوق ، فإن ألم الحسرة للفناء سيظل أهون مما لو كانت الحياة الانسانية ناضبة من العطف ، اليس كذلك ؟
— بلى يا مولاي ، بلى .

لفظت لميس الفتاة الرومية ، التى بدل اسمها الأصلى بهذا الاسم العربى

(١) كان مولده سنة ستين هجرية — تاريخ ابن خلدون الكبير .

هذا الجواب في تلعم ، وقد مال نصفها من الحركة التي سرت في جثائها الغض على أثر تضرع سيدها المحبوب أو «المالك الشاب» التي أناطت بشخصه كل ما يختلج في صدرها من أمل مشرق ومالت تقبل يده فطبع على وجهها قبلة تحمل من غرامه القدر الذي لا يتلاشى أمام منطقة ، غير انه لا يبرز إلى درجة هيام العامة بالنساء ، ولكن الفتاة تذوقت في هذه القبلة من السعادة والمسرة القدر الذي لا يتلاشى — أيضا — أمام ذلك الوقار الذي استفزه الدم العربي يتنزل إلى ملاسة الدم الأجنبي في ساعة صفاء وغبطة .

كان سليمان أروستقراطيا بطبيعة الملك الذي اجتمع فيه مع الشباب الناضج المكتمل والعربية المحبوبة من جانبي الأب والأم ، وشرف الأسرة القرشية المالكة ، وعلو النسب في العربية إلى عدنان ، وناهيك بأرومة عدنان في النسب العربي ، هي الحسب العالي في صميمه ، واللؤلؤة الساطعة في عقد أنساب الناطقين بالضاد ، ومضرب المثل الأعلى للفاخرين بشرف الجدود من هؤلاء .

يضاف إلى هذا المزيج في أروستقراطية سليمان خلقه الخاص في عظمة النفس والعزوف بها إلا عن المظهر الأسمى حسبا توحى إليه غرائزه .

جلس الملك الشاب في صدر الغرفة ، وأجلس حظيته المحبوبة إلى جانبه ولم تكن «لميس» فتاة عادية أو حظية مما يستعمل للتهنة فقط ، ولكنها كانت مستنيرة مثقفة ، فأخذت تبادل الملك آراءه في مصير ذلك الجيش العربي الجرار الذي غادر العاصمة قبل لحظات وأخذت تطرى أمامه بسالة قائده مسلمة ، والعرفاء وشحنة الجند ، ولم يكن هذا الاطراء مما يقصد به المجاملة في المديح المكذوب عادة ، فإن لميس كانت خبيرة بمواهب هؤلاء المحاربين .

وكان سليمان أعرف منها خبرة بكفائتهم ، فكان يصف لها الى أية درجة من الظفر يبلغ هذا الجيش الأموى ، حسب ما هو مزود به من الايمان القوى والعتاد الحربى ، والكفاية العسكرية ، والنظام الجليل .

ولندع الجيش يتغلغل فى صحراء الاناضول يتقدم شمالا ليقصد القسطنطينية على رأسه مسلمة بن عبد الملك أخو الملك لاييه ، ولننظر الى لميس وسليمان وهما فى ظرف يطغى على نزعات الارستقراطية ويطلب فى جو ذلك التعاطف سعادة الإنسان « الذى لن يبقى إلا مغمورا بألم الحسرة للفناء » كما قال قبل لحظة سابقة .

هنا يبرز « كيوييد » ، بسهامه ، فيصمى الصديقين ويسود فى الغرفة جو تغذى فيه « فيفرس » عواطفها الروحية من « ادونيس » ،

كان الضحى جميلا أخذا ، وأشجار السرو تמיד حول قصر معاوية ، والنسيم العليل القوى يحمل إلى الغرفة روائح الأزهار ، من حدائق الغوطه ، وبرده . « يصفق بالرحيق السلسل » ، كما وصفه حسان شاعر بنى جفنة الغسانين وينتهى دور الساعة الغرامية بين لميس وحبيبتها العظيم .

ويبيح الملك الدخول لأفراد الحاشية ، وأسرة البيت المالک للسلام والتشاور والمحادثة حسب العادة الجارية ، فيدخلون ويبتدىء الحديث .

— الملك ماترون فيما تقوله لميس عن جيش القسطنطينية ؟ إنها تطرى فيه البسالة التى تقول إنها لم ترها قط فى وجوه أفراد أى جيش آخر .

روح بن الوليد — ان الحقيقة العادية هى ان عمى مسلمة سوف لا يترك

هذه الفرصة التي يترقبها من حين بعيد لبث ما يحمله بين جنبيه من حسن القيادة المعروفة عنه ، والشجاعة التي كثيرا ما كان يغبطه من أجلها أبوه أمير المؤمنين عبد الملك .

العباس بن الوليد - الحق أنك يا روح تحب عمك أهول الحب ، كما قالت عنك جدتي ولادة .

لميس - وكما قالت أيضا عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

روح - أوليس فيها ذكرته ما هو جدير بتفوق عمي مسلمة ؟

يزيد بن هشام - بلى يا روح ! غير أن عباسا لا ينفك يتعقب أقوالك دائما .

روح - ولكن لميس تقف على أثره .

عباس - ألسنت ترى لميسا صريحة دائمة وواعية للأقاويل .

يزيد - إن لميس لمهذبة .

روح - نعم وإنها هي التي بدأت الحديث بالإعجاب بعمي مسلمة وإنها

لتشاركني في الولوع بذكر كفاءته ، ليس كذلك يا لميس . ؟

لميس - « تهز رأسها في صمت ووقار علامة الإيجاب »

الوصيفة أفرید - « تهمس في اذن يزيد بن هشام وكان يحبها ، إني أرى

روحا كثير الكلام فما رأيك ؟

يزيد - « يبادلها الهمس » هو ما تقولين .

الملك - وماذا قال مسلمة عند ما صحح عزمه على أن يفعل بالجنود ؟

من منكم يذكر قوله ويعيد . ؟

لميس - أنا أذكر ذلك ، إنه قال : ان شاء الشعب العربي ليسمو في حاضره ومستقبله إذا عرف كيف يستفيد من ماضيه ، وكيف يطبق الصالح ليس إلا على حياته ، ثم يمشى بخطوات متزنة إلى التطور الناجح ، كما فعل عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، الذين لم يتعصبوا التعصب الأعمى المزرى ، وها نحن أولاء ذاهبون لنفتح بعون الله مدينة قسطنطين المنيعه ، كما فتح عمر بلاد الفرس والروم الشرقيين ، وكما حاول معاوية فتح بلاد الروم الغربيين وأنشأ الأسطول للفتح العربي البحرى ، وكما استعمل عبد الملك الحضارة الجديدة فى تأسيس الدواوين والكتابات وصحف الرسائل ووضع السكة الإسلامية العربية ، ولم تقم دون عزائم هؤلاء خرافة من الوهم والضعف تسد عليهم طريق الحياة الاجتماعية المتسعة ، وإنما سنفتح القسطنطينية وسنصل بما فيها من حضارة الرومان ، وسوف لا نألو جهدا فى استعمال هذه الحضارة النافعة فى بلادنا ما دمنا عازمين على أن نسمو بشعبنا ورعيتنا إلى مستوى عظيم .

عباس - « يخاطب روحا » : ألم أقل لك إن لميس واعية للأقويل ؟

روح - حقا إنها كذلك وإنما أيضا لمهنية كما يقول يزيد .

عباس - اسمعها كيف تروى خطبة مسلبة التى ألقتها على الجمهور وهو يغادر المدينة بجيشه ، وكأنها لم تخطئ حرفا واحداً نطق به .

الوصيفة آفريد - « لينزدهمسا » إلى لمسورة جدا الساعة . إنهما يطريان سيدتى على مسمع منها ، وهى جديرة حقا بما يقال عنها . انظريا يزيد كيف تشرق أسارير وجهها الصغير .

يزيد - إنها لهائلة .

المملك : يخاطب لميسا معلقا على حديثها ، . أجل يالميس . هذا ما قاله مسلمة ، وهذه هي أفكارى أنا أيضا ، وأنت تعرفينها ، وإنى أنا سليل عبد الملك سأحافظ على تراثه الفكرى والأخذ بخطته فى تعميم الحضارة ، وسأوسع فى الأخذ بها حرصاً على مجد يطلبه كل ذى همة فى الوجود .

إن كاهلى يالميس لمثقل جدا ^(١) ، وكأنى أرزح تحت احمال هائلة فإنى لا أدرى ماذا سيكون حديث الناس عنى من بعدى اذا أنا قصرت فيما يرضى حاجات الأمة والبلاد ، ويحقق مطامع هذا الشعب العربى الحى ؟ أنا راع مسئول عن رعيتى ، وعلى واجب كبير هو أن أتحمل المشقات وأصفيح عن الأخطاء وأنفذ الرغبات الكبيرة ، وهذه هى السبيل التى تعالى شأن بلادى ، وتجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، هذه سبل المجد والخلود للعظاماء ، وسأكون ملكا خالدا فى صحائف التاريخ .

يزيد بن هشام - وماذا تحاول أن تصنع للأمة بعد ؟

المملك - إذا طمعت أن يمدحنى الشعب وأن ينظر إلى الأجنب المجاورين بعين الإجلال فإن مدح الشعب الحقيقى لا يأتى إلا من طريق العمل لنفعه وتحقيق رغبات النافعين من رجاله ، واجلال الأجنب لا يأتى إلا من طريق مسابقتهم فى إعزاز شأن البلاد وبث روح العلم والعمل ووسائل العمران . قال المملك أفكاره هذه ونادى الحاجب .

ويدخل الحاجب : فيأمره أن ينادى له مستشاره رجاء بن حيوة ، ويحضر هذا فيخاطبه المملك قائلا :

(١) كان سليمان فضيحا مفوها تاريخ الخلفاء للسيوطى

اسمع يا رجاء إني سأفتح بابي لرجال البلاء وذوى التفكير الجيد منهم،
وسأصل بهم في أيام متكررة من الشهر، وسأحيط علماً بما يجول في خواطرهم
من الأفكار النافعة، لأعرف بنفسى ما يهم الأمة أن تكون عليه.

هذا شيء، وشيء آخر: إنك واسطتى إلى الناس فلا يسؤل لك الشيطان
تشويه حديث تؤمر برفعه، أو كتمان حاجة يطلب ابلاغها إياي التماساً
لمنفعة خاصة لك أو غرض سيء. تتجاوبه نفسك، فإنما أنت خادم وخادم
الأمة معي، وعليك أن تكون أميناً فيما أقتك عليه^(١) وإنك لتعزضني
يا رجاء إلى أحقاد ليس من العقل أن استهين بها إن انت أهملت هذا الشأن
من رشد السياسة العادلة.

وتلق رجاء هذه الأوامر الحازمة من مولاه وهو مغتبط لإرادة
المملك الجليل.

وأخذ أصحاب الحاجات الكبيرة يتصلون به وبالمملك نفسه، وهذه هي
الناحية الديموقراطية في سليمان، ولكنها الديموقراطية الراقية التي لا تصادم مع
أروستقراطية المهذبة ولكنها تصطحبان، وأخذ يسود في الناس في زمن المملك
الاستقراطي الديموقراطي روح الثقة والتناصح وبذل الجهود النافعة، وأخذت
أفكار الجمهور تنقاد لبنى أمية، وفهم الشعب روح الاسرة المالكة التي اكتسبت
قوة معنوية من ميول الشعب المحب، وتفتحت أمامها سبل جديدة لنجاح
سياستها الداخلية بانضمام الشخصيات الممتازة إلى معاونة الحكومة
في الأعمال التي صرفت فيها مواهبها بقوة وأمانة وإخلاص.

(١) كان سليمان مؤثراً للأندلس « تاريخ الخلفاء وحياة الحيوان للدميري،

* * * * *

وبعد ان خرج رجاء من مجلس الملك الخالد قال هذا لمحبوته المثقفة :

ترى ماذا قال عنى الناس بعد ثورة اهل خراسان على عاملى فيها قتيبة ابن مسلم ، ذلك القائد العظيم الذى ذهب ضحية استعجاله وسوء ظنه ؟

قالت لميس : انهم قالوا ان مقتله كان يياعاز امير المؤمنين ، او على الاقل انه صادف هوى فى نفسك من حيث انك كنت منحرفا عنه ، لما أبداه من الرأى لأخيك الوليد فى عزلك عن ولاية العهد واستبداله بك ابنه عبدالعزیز ، الأمر الذى كاد يتم لولا أن عاجلت المنية أخاك وكان حظك غالبا فيه .

فاعتدل سليمان فى مجلسه وظهرت على معارف وجهه امارات الجذ وقال : ولكن الجمهور لا يزن الأمور فى الغالب بميزان الحقيقة ، فانك تعلمين ويعلم الكثير من الناس أنى لا أضع الغرض موضع الواجب ، فإنى برغم ما بينى وبين هذا القائد العامل من التنافر ، فقد أجبت طلبه فى استبقائه واليا على خراسان ، وكتبت العهد بذلك وأنفذته اليه ، ولكنه كان غير واثق منى لما أسلفه من الإساءة الى قبل ولايتى الأمر ، فاراد ان يقلب الخراسانيين على بيعتى ، ظنا منه أنى لن أنفذ رغبته فحاق به مكره السيء وقام عليه الناقون ، وفاء بعهد مليكهم الذى عرفوا صرامته وشرف مقاصده

وساعدهم على هذا العامل ماسبق له من الغدر بهم فى عهد أخى الوليد ، يوم أن كتب اليه الحجاج أن يختلهم ويغدر بهم .

أفلا ترين أنى نقى الصفحة ، وان حماقة هذا القائد وانصياعه لأراء الحجاج ، ذلك الشرير العنيف هما الأمران اللذان اردياه الى هاوية هذا المصير المشؤوم ؟

ترى الى أية درجة تفعل الحماقة بصاحبها؟ أما واني اقدر مواهب العبقريين وأجل النوابع عرفانا بما لهم من سمو المكانة في الانسانية، وأنى اعرف تماما ان العبقرية تشفع لصاحبها فيما قد يرتكبه من الاخطاء مهما كانت فداحتها. وهكذا أعلنت عقيدتي هذه بإبقاء قنبلة في عمله على خراسان متناسيا تلك السفاسف التي لا تقال في نظري من قيمة الرجل العملية في المجتمع، لأن العمل الذي سيقدمه لنفع الدولة يربو كثيرا على كل ما بدر منه من هنات زالت بزوال ظرفها.

أما هؤلاء القائلون إن مقتله «صادف هوى في نفسى» واستتجوا من ذلك «أنه لا ينبغ النوابع ولا تخلص قلوبهم اذا رأوا ان نتيجة اعمالهم ستكون على مثل ذلك»، فإنهم اجهل الناس بحقائق الاشياء، فقد فاتهم ان الهفوات الشخصية يجب ان تتناسى امام ما ينطوى عليه المخطيء من المقدرة والاستعداد للنفع العام، وان هذا النفع والمقدرة والكفاءة ستكتسح ما فرط منه وستبني له مجدا ومحبة لا يستطيع اكتسابها ذوو المقدرات التافهة والذكاء الرخيص.

وما أوقع تسرع القائلين في الحكم دون ان يقفوا على حقائق الأمور واسبابها ومصادرها والمتسببين فيها والظروف الملجئة اليها.

انا الملك الخالد، والملك الخالد هو الذى يرى موضع المجد فيطمع ان يجذبه اليه متقدما اليه بجرأة وصراحة وثقة، لأنه يعرف ان النتيجة له.

أنا الملك الخالد سوف احقق خلودى على الأجيال بوضع كل شىء موضعه الواجب، وافتح عيني لطرف العظمة الصحيحة، والخلود المنشود.

أعجبت « ليس » بصراحة الملك وصدق لهجته ونغمته على المتقولين بما ليس في الواقع ، أولئك الهارفون بما لا يعرفون ، وقامت تقبل رأسه وما بين عينيه ، وأطراف أنامله ، واعترتها نشوة الظافر ، لما وجدته في كعبة أملها من سمو الإرادة والطموح الى المثل الأعلى ، ونضوج الآراء الكبيرة وهو ذلك الملك الشاب كما وصف نفسه ، ولكن سليمان وقف تيار هذه القبلات الحارة لما يدونه في خاطره من الأفكار الكبيرة واستمر في حديثه يسألها :

ثم ماذا يقول القائلون عنى غير ما سلف ؟

فاهتبتها « ليس » فرصة سانحة تتكلم هى بدورها عن نواحي العظمة في حياته التاريخية ، فابتدرته قائلة :

« لقد اعترف الناس باموالى بالنعمة التى خصصت بها ، فى فتح جرجان وطبرستان ذينك الاقليمين الهائلين العنيدى الذين خضعوا لسلطانك ، بالفتح المبين بعد أن أعني ذلك سابور ذا الاكشاف وكسرى بن قباد وكسرى بن هرمز وأعني عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن جاء بعدهما من الخلفاء الى أن تم لك فيه الظفر والتوفيق ، أما رأيت هذا الاعتراف بالعظمة مجسما فى ألسنة الناس من خلال الرسالة التى كتبها اليك يزيد بن المهلب عاملك على خراسان ، ذلك القائد الذى تم على يديه هذا الفتح ؟ سر فى طريقك ياسيدى ، وامض الى الخلود الذى تنشده ، واغرس فى هذا الطريق ازهار الورد الناصع والفسرين القوي ليعبق اريجها للعابرين .

فأشرقت اسارير الملك ، واعتبر بنفسه أمام هذه الحقائق وأمن على أقوال فتاته النابهة وقال : نعم سأسير يا ليس فى هذه الطريق ، وانها مفتوحة للسالكين .

ان طريق الخلود للملوك هي أن يفتحوا صدورهم لقبول مواهب
العبقريين ، وان يمهّدوا السبيل لبروز كفايات العاملين ، وان يعملوا هم انفسهم
للحياة الحاضرة ويعملوا للمستقبل ، المستقبل البعيد اعمالا تذكرها
الاجيال الفاهمة ؛ وتعرفها الطبقات المستنيرة .

أما طريق الخلود لغير الملوك فهي أن يتقدموا بما يستطيعون من عمل
وذلك في جرأة المقدم على المجهول ، وثبات السائر على الشوك ، ويقين
المؤمن بذخيرة الحياة .

هلدا

« فتاة انكليزية في السادسة عشرة من عمرها تدعى : هلدا ، ربتها زوج ايها « الاليدى اليوث » بعد أن توفيت أمها حنة ، وقد حجرت عليها أن تفارق معمل الزجاج ليل نهار تكد فيه لتجنّي العاتية ثمرة عملها . أحبا قى في مثل سنها يدعى « ادوارد » واحبته هي فكانت تسترق الاوقات للاجتماع به خفية في أحد المروج خارج « اكسفورد » حيث يتناجيان بأرق تعاير المناجاة وأبلغها ، فاذا غادرته إلى عملها المحتوم عليها ألا تتأخر عنه ناجي هو الطبيعة ، في النبات الناجم ، والشمس الذهبية ، والأحراج والظلال .

ثم يصطدم الحبيبان بصدمة الفراق المفاجيء حيث تضطر « الاليدى اليوث » للرجعة الى « أمريكا » لقبض إرث زوجها الذي حضرها خبر وفاته تلغرافيا وتستصحب معها « هلدا » وتطول الغيبة تسعة اشهر حيث تصنع « الاليدى اليوث » بنفسها حساب زوجها المتوفى مع الشركات قدشدد الصاعقة على كليهما ويتبادلان الرسائل المليئة بعواطف الغرام والألم . . .

ثم تشب « حرب المائة سنة » بين الانجليز والفرنسيين ، فينظم « ادوارد » في سلك المحاربين ، ويبل في المعارك البلاء الحسن ثم يستشهد في إحدى الوقائع البحرية

ويتصل ذلك الخبر المؤلم بـ « هلدا » فتعول على أن تحذو حذو « جان دارك » القديسة الفرنسية الباسلة « التي انقذت فرنسا في سنة ١٤١٥ »

في عهد « شارل السادس » بعد هزيمة واقعة « اجسكوار » فنتقم لجيبيها
وبلادها مستعينة بما في وجدانها من قوة غرامها المسكين على هذه التجربة ،
فلئن نالت « جان دارك » القداسة والمجد الحربي بفضل الارواح العلوية كما
كانت تزعم فإن « هلدا » لا يعجزها أن تتألمها بروح الحب ...

وبشئ الوسائل الدقيقة تبلغ بغيتها في التجنيـد ، متكررة تحت اسم
مذكر هو : « هنرى لوينت » وتخوض المعركة ..

وتتنبه « اللايدي اليوث » للأمر فتسعى للكيد له « هولدا » التي لا تحبها
والتي ملأها الحسد لها لفوزها وتقدمها ، وتستعين لإحباط مساعيها السياسية
بوكيل معملها « مستر جرين » الذي سرق رسائل « هلدا » الغرامية لأدوارد
نفسه بحيلة شيطانية ليفضح حقيقة امرها .

وتحس « هلدا » بهذا فتغري بـ « مستر جرين » أناسا من اعوانها
يفسرون دفاتر حساباته المزورة ويتضح امر خيائته الادارية عند المسؤولين
في الشركات بأمريكا فيسقط وتسقط معه « اللايدي أليوث » وتسترجع
« هلدا » رسائلها المسروقة وتمضى في مهمتها وتنتصر ، وترضى ضميرها بالانتقام
لروح جيبيها .

وكما أصبحت « جان دارك » في عداد الخالدين - أو الخالدات - أصبح
روح هذه المغامرة الجديدة « هلدا » يرقى في معارج العظمة ، متخذاً طريقه
إلى مجد الخلود ..

هذا ملخص الهيكل الذي بنيت عليه هذه الأقصوصة في أسلوبها المبسط ،
وهي أقصوصة ضمنية أدمجت في ثنايا قصتنا الكبيرة « طريق الخلود » على أنها
مكتوبة بقلم « نانا » بطلانة قصة طريق الخلود ، كما أن أقصوصة « ليس » هي
الأخرى ضمنية مدمجة في تلك القصة الكبيرة ، على أنها مكتوبة بقلم بطل القصة
(م . . .) زوج نانا .

والحديث عن قصة « طريق الخلود » لا يتسع له مجال هذه الصفحات .
وحسب القارىء أن يعرف أنها قصة كبيرة اجتماعية ترمى إلى إصلاح
المجتمع عن طريق المرأة المهذبة ، وربما أتبع لنا أن نطبعها وحدها
— طبعا — في مجلد أو مجلدين .

في مجلد أو مجلدين .

في مجلد أو مجلدين .

مؤلفات العواد

النشر :

خواطر مصرحة : مقالات ناثرة في النقد والأدب والاجتماع ، طبعت

في المطبعة العربية بالقاهرة ، ونفدت نسخها .

تأملات في الأدب والحياة : أبحاث ومطالب أدبية ونظرات في النفس والمجتمع .

من وحي الحياة العامة : مقالات قصار في فلسفة الحياة واستيحاء واقعها العملي .

سليمان بن عبد الملك الأموي : قيمته الاجتماعية من طريق تحليل شخصيته .

رحلة القنفذة : مشاهدات موجزة عن هذه البلدة الساحلية في جنوب

المملكة السعودية .

رحلة نجد : لمحات خاطفة عن الشعر النبطي النجدي ، مع نماذج منه ،

ووصف بعض العادات والأماكن والمشاهدات في نجد .

المحتقب : قاموس صغير حديث الفكرة والترتيب ، يحمل

في الجيب والحقيبة .

موعود انسان : تعقيب دقيق ومراقبة وتسجيل لحياة طفلة في نشأتها

الأولى ، وفيه دراسة لأطوار الطفولة في عرض محدود

الهيكل واسع الأفق .

طريق الخلود : قصة اجتماعية كبيرة تهدف إلى تهذيب العائلة من

طريق تشقيف المرأة .

لميس : قصة غرامية تمثل سمو العاطفة ، مستوحاة من التاريخ .

وقد أدرجت في هيكل قصة « طريق الخلود »

هـ : أقصوصة موضوعها غربي وأبطالها انكليزي .

تلخيص إلياذة هوميروس - تلخيص كتاب « التجديد في الأدب الانكليزي »

تابع مؤلفات العواد

الشعر -

أشعة الشروق : شعر في سنيه العشر الأولى من الحادية عشرة الى العشرين .
الأصابع : « « « « الثانية من العشرين الى الثلاثين
الآراد : « « « « الثالثة من الثلاثين الى الأربعين
الأوهاج : شعره بعد الأربعين ، ولا يزال هذا الديوان مفتوحا
لم يتم بعد .

قوادم النسر : قصائده الشهيرة الطائفة كقصيدة الحرب الخفية ، في أوربا
التي نالت الجائزة العالمية للشعر العربي من لندن في سنة ١٩٤٦
خوافي النسر : الأبيات والمقاطع المنطوية في قصائده على افكار فلسفية
أو نظرات عامة في الحياة أو صور مستقلة أو تعابير
تسرى مسرى الأمثال .

مخالب النسر : شعر المعارك الشخصية التي دارت بينه وبين الذين تركوا
مجاراته فنيا الى حيث عمدوا الملاحاة لا ترفع قيمة الأدب .

الساحر العظيم ، أو يد الفن تحطم الأضنام

قصيدة واحدة من قصائد العواد الجبارة ، تحتوي على سبعة وستين مقطعاً يضم
المقطع الواحد منها خمسة عشر بيتاً . فأبياتها كلها فوق الألف ، وموضوعها حياة
عملية لشاعر فذ .

تنبه

هذه المؤلفات كلها لم يطبع منها غير السكتابين النثرين الأولين ، أما الباقية فمخطوطة
جاهزة مهيأة للطبع .

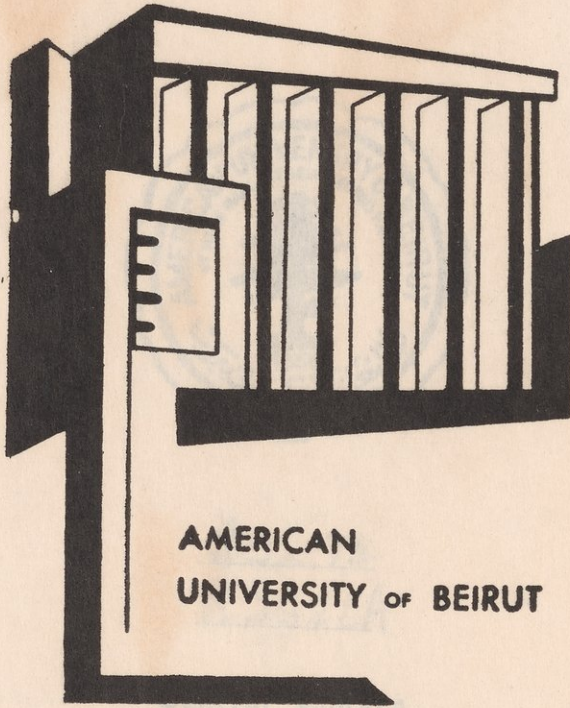
الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٨	السعادة	٤	الإهداء لجلالة الملك
١٠٢	فن الرواية	٦	صورة المؤلف
١٠٦	عود على قصة «مرهم التناسي»	٧	مقدمة
١١٤	الرد على زوبعة مضحكة	٩	الانسان والحياة
١٢٠	الفداذة في الشاعرية	١٢	العمل في سبيل اللغة العربية
١٢٢	أدب التقليد	١٧	احترام النفس
١٢٨	الأدب الكاسد	٢١	مواضيع الحياة العامة
١٣٢	نظرة عامة في السياسة العالمية	٢٤	الشعر والفلسفة
١٣٥	فلسطين المنكوبة في حريتها	٢٨	رجولة كاملة
١٣٩	الصحافة	٣٢	بنيتمو وسوليني
	هل للنجاح الحدود صلة بفضائل		(١) الحالات السياسية والاجتماعية
١٤٤	النفس الكبرى	٣٨	والاقتصادية في البلاد
	وجوب الاستعداد للاحتفال		(٢) الحالات السياسية والاجتماعية
١٤٧	بذكري المتنبي	٤٢	والاقتصادية
١٥٥	مؤسسة للبؤساء	٤٩	علاقة الأدب بالعلم
١٥٩	دار اليتامى في وضعها الجديد	٥٢	خواطر متداخلة
١٦٥	حياة سيد العرب	٥٦	التعاون العام بين أقطار الجزيرة
١٧٦	قصة الانتقام الطبعي	٥٩	ميدان الشباب
١٨٢	ذكريات	٦١	أدب الإفلاس
١٨٥	شئون	٦٤	عامية الحجاز وصلتها بالفصحى
١٨٨	مناقشة	٧٠	في السبيل
١٩٠	هل يتأزم الأدب	٧٣	اعملوا للبلاد
١٩٢	كيف ينظم الشعر	٧٦	الجامعة الإسلامية
١٩٤	الشیطان العاشق	٨٢	حديث مع الرحالة الاندونوس
١٩٧	الهولة	٨٦	إلى الامام ، إلى الامام
٢٠١	لميس	٨٩	أدولف هتلر
٢١٤	هلدا	٩٣	مناقشة مثل
		٩٦	أيها الموت : شعر منثور

عواد، محمد حسن
تأملات في الأدب والحياة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038255



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.74 
A967tA